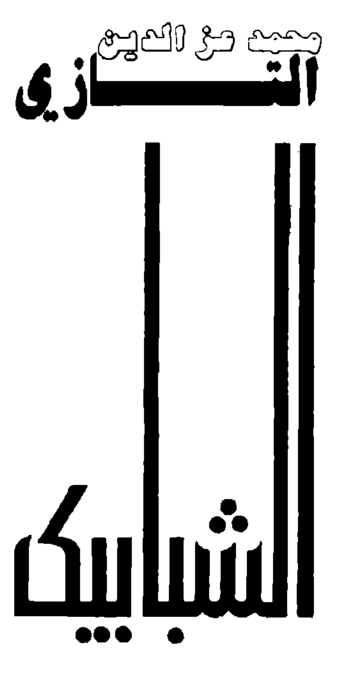
محمد عز الدين
التازي

الشبابيك



البوكيلي للطباعة
Boukili impression


محمد عز الدين
التازي
الشبابيك

الطبعة الثانية
2001

رقم الإيداع القانوني
2001 / 559

الرقم الدولي المعياري للكتب
ردمك 8 - 061 - 45 - 9981 ISBN



البوكيلي للطباعة والنشر والتوزيع

43، زنقـة محمـد عبـده القنيطـرة

هاتف 00 99 37 / 37 99 37 037 فاكس 35 99 37 037

... واعلم أن أمور تدبير هذا العالم متروكة لاصطبارك

وقدرتك على محاكاة عالم آخر، فأنت كصاحب الخطط،

والخطط كلها مبنية على تلك اللحظات البارقة التي يشع

فيها الخاطر وتحضر فيها الفكرة كالبرق الخلب. فإما أن تقبض

على تلك اللحظة أو تضيع منك، وإما أن تطاوعك

اللغة على التسويغ والإنشاء، وإلا فأنت كالقابض على الماء،

فكن مخطوفاً حتى تأتي اللحظة إليك، وكن مجذوباً أو متصوفاً

أو محلقاً بأجنحة الخيال حتى تدرك اللحظة التي حدثتك عنها

وتديركها، وحتى تقنصها وتبني منها عالمك أو تهدم هذا

العالم الماثل أمامك لتبني العالم من جديد.

ابن ضربان الشرياقي

حديقــــــــــة
الأرواح

انتهت حالة الوجع. بدأت بعض الصور الوردية تأتي إلي، حاملةً معها إلحاحا كبيرا على أن أصبح أنا نفسي واحدة من تلك الصور التي تحضر وتغيب، تتعاقب متتالية ومُدَدُ بقائها تتراوح، لكن اشتهاءها للبقاء لا ينتهي.

ها هي صورتي الوحيدة تأتي إليّ. صورةٌ بيضاء، بالأبيض والأبيض، ولعلها صورة البدء.

□ □ □

في هذا الصمت المتوحش كليالي المقابر أو تَشَرُّدِ الذاكرة في أودية الصحراء، سقطتْ كأسٌ من حافة المطبخ وتهشمت. لا بد أنها قد تهشمتْ، فقد كان صوت ارتطامها بالأرض واضحا، دون أي رنين يوحي بأنها قد سَلِمَتْ من الإنكسار. انْكَتَمَتِ الشظايا. ثم جاء وَقْعُ خطًى، ومُوَاءُ قِطٍ هائج في أدراج العمارة، واختلط المواء الحاد الجارح بسعال متقطع، وبأصوات أخرى مجهولة المصدر.

تتبع الرجل الجالس أمام التلفزيون تلاحق أصوات المواء وامتدادها الممطوط. لم يكن يتصور أن القطط يمكن أن تموء بكل هذه الحدة. لا يمكن ! لم يكن هناك أي قط على أدراج العمارة. هن النساء الذبيحات، وقد جاء صراخهن من بعيد. فكر الرجل الجالس أمام الشاشة في نساء يتم ذبحهن. الأجساد عارية تَلُفُّها غُلاَلَةٌ من بخار ماء الحمام. حَمَّامٌ بلدي يقع في أحد الدروب السفلى لمدينة عتيقة. الشعور الطويلة مُسْدَلَةٌ على الأكتاف وقطرات الماء تتساقط منها. الأثداء عارية. زغب الوسط بَادٍ رَغْمَ البخار الذي يحجب شيئا من وضوح الرؤية ويَلُفُّهَا بغموض مُحَبَّب. كُلُّهُنَ واقفات. شَرْشَرَةُ الماء. الأصوات النسائية المتداخلة. الأجساد راغيةٌ برغوة الصابون، تنزلق كالأسماك إذا ما جاءت اليد السوداء لتمسك بها. ولقد رأى الرجل الجالس أمام شاشة التلفزيون ضوءا خفيفا يتسلل من ثقوب في سقف الحمام

المُقَبَّب، مغطاة بالزجاج، ومن تلك الثقوب ظهر له كل شيء، فقد كان مُنبَطِحاً على بطنه يطل من أحد تلك الثقوب، وهو يغمض عينا ويفتح أخرى. مَذْبَحَةٌ بغير دم ! لم يظهر أي رجل. ثرثرة النساء وأصوات شرشرة الماء تحولت إلى صراخ حاد وحركات مُنتَفِضَةٍ واحتماء للنساء بالجدران. دم ولا دم ! دم كالماء ! الأعناقَ ذبيحة ولا دم ! صراخ النساء الذبيحات يُخَلْخِلُ قبة السقف التي ينبطح عليها الرجل الجالس أمام شاشة التلفزيون ليطل من أحد الثقوب. يَنْزَلِقْنَ من يد سوداء تمتد إليهن كالأسماك، ولعله ذلك العبد الأسود، المَمْسُوسُ بالرغبة في الذبح، قد تَسَلَّلَ إلى حمام النساء خُفْيَةً، أو أنَّ يده السوداءَ وحدها كانت كافية لذبح كل نساء الحمام، تَنْحَرُهُنَّ واحدة بعد الأخرى، دون أن يَفُلَّ من عزمها الصراخ المُرْعِبُ. كل هذا ولا دم ؟ البخار والماء يشرشر من السقاية ولا دم، ولعلهن كن دُمْيَات قد وُضعت في فضاء الحمام من أجل أن يكون هذا المشهد، أما الصراخ فلربما يكون وَافِداً من الخارج، أو هو صراخ قط هائج على الأدراج.

جاءت الدروب السفلى للمدينة، ولم تنقطع أصوات المواء الشبيهة بأصوات نساء ذبيحات، ثم بدأ اتجاه العاصفة نحو أسلاك الكهرباء، والرايات واللافتات، وسمع الرجل الجالس أمام شاشة التلفزيون دَبِيبَ بعض الرجال، ووَقْعَ خُطىً عسكرية، وارتطامَ بعض الأشياء ببعض الأشياء، وصدى أغان، وقد عرف أن الرجال مشبوهين من دبيبهم ووقع الأحذية الخَفيف على الأرض، ومن ملاحقة العسكر لهم. جاء إلى المشهد بعض الأطفال، ورجال يمسك كل واحد منهم راية وكأنه يمسك زهرة. لم تكن الأيدي محمولة إلى الأعلى، مُلَوِّحَةً بالرايات بشكل حماسي، والرايات لم تكن خَفَّاقَة. كانوا يحملونها بين أيديهم بحنين خاص، وكأنهم يحملون قلوبهم بين أيديهم، ينظرون إليها

فَتَرِقُّ مشاعرهم وتبدأ الأغاني الهادئة كأنها التراتيل. رايات صغيرة حمراء تتوسطها نجوم خضراء، لم تستطع العاصفة أن تُخفِقَها، مع أن القلوب هي التي كانت تخفق.

تداخلت صور الرجال المشبوهين بصور الرجال الذين يحملون الرايات على هذه الشاكلة، فقد تبين أن التحاما قد حدث بين الفريقين، ولم يكن الرَّصَاصُ هو الرصاص. حينما أحنى الرجل الجالس أمام شاشة التلفزيون رأسه قليلا، كان قد أحس بواحدة من تلك الطلقات الطائشة وهي تَمُرُّ قريبا من رأسه. التقطها من الأرض وهي ما تزال ساخنة، ووضعها على الطاولة أمامه حتى يتمكن من متابعة المشهد. الأطفال يصعدون من الدروب السفلى للمدينة وفي أيديهم مسدساتٌ طلقاتها من الماء، بعضهم يحملون الرايات كما تحمل الزهور، وبعضهم يكتفون بالضحك، والنظر إلى تطورات المشهد، فقد بدا واضحا أن الرجال الذين يحملون الرايات هم الذين يُطَارِدُونَ المشبوهين، ويُطَارِدُونَ العسكر أيضا، بالرغم من أن الصورة لم تكن واضحة بشكل كاف. العاصفة تَهُزُّ أسلاك الكهرباء. طيور بيضاء تَجْفَلُ وتتوزع في السماء. وَمِيضُ بَرْق. ضحكات هستيرية دون أن يظْهَرَ في الصورة من يضحك. رسائل تُمزق وتُضرم في مزقها النار. جنازةٌ تعبر الطريق والسيارات العصرية تَمْرَقُ بسرعة والشرطي يصفر للمشاة وراء الجنازة ويَحُثُّهُمْ بإشارات من يده على أن يُخْلُو الطريق. رعود وبروق تَخْلُبُ الأبصار، والرجل الجالس أمام شاشة التلفزيون يُمَسِّدُ ظاهر عينه اليسرى ويتابع ما يحدث بعينه اليمنى في انتظار أن يَفْتَحَهُمَا معا. صفير. خطوات عجلى. الرجال الذين يحملون الرايات يطاردون الرجال المشبوهين. رجل يعبر الطريق، في يده باقة نعناع. الضحكات الهستيرية. الأيدي التي تحمل الرايات تظهرها للمارة والعسكر والسيارات، تظهرها للبرق البارق في السماء وهي تلمع وتصير

مضيئة تحت كل بارقة تَبْرق. تَذَكَّرَ الرجل الجالس أمام شاشة التلفزيون أنه لم يشتر رَايَةً في حياته، ولم يرسم رَايَة، وبالرغم من أنه لم يَبِعْ راية فقد أحس برعب الخيانة وفكر في إصدار عقوبة تجاه نفسه. وحين ظهرت المصفحات والسيارات العسكرية، لم تكن سوى دمى يلهو بها الأطفال، فتعجب كيف أرعَبَهُ مشهدٌ مضحك إلى هذا الحد.

□ □ □

تذكرتُ أن الظلام هو ظلام الغرفة وأن المشهد الخارجي قد أُسْدِلَتْ عليه الستارة، وأن الرجل الذي يشاركني الغرفة قد نام بعد أن ختم حكاياته المتداخلة بنهاية غير مأساوية كما كنتُ أتوقع، بالرغم من أنه ينتظر الموت في كل لحظة. حينما تأتي زوجته للزيارة تطل من باب الغرفة نحو مكانه، ثم تتراجع قليلا نحو الممر وتعود للدخول. تقف ذاهلة عند سريره ثم تشهق. تتظاهر بالسقوط مُوحِيَّةً بأن رأسها يصيبه الدواخ. تتجه نحوي وتقول لم أكن أتوقع أن يكون ما يزال على قيد الحياة. تعرف أنه قد سمع. تتجاهلنا معا وتطل من النافذة. تتظاهر بالسهوم، وكأنها تَعُدُّ الجِمَالَ المتناثرة في الخلاء البادي من النافذة. وقد كانت تفعل نفس هذه الأشياء في كل زيارة. صرت بِحُكْمِ تكرار تلك الأشياء أعرف متى سوف تتراجع نحو الممر، ومتى سوف تطل من النافذة، ومتى سوف تستدير نحوه وترى ابتسامته المُوَجَّهَةَ إليها وهو يرمق حركاتها داخل الغرفة، ومتى سوف تجلس على حافة السرير وتبدأ حكاياته وأسئلته عن السواق الذين يسوقون سيارات الأجرة التي في ملكيته، ومتى تجيب باقتضاب وتَبَرُّم، ليخبرها بأن أحدهم قد جاء بالحساب، والآخر لم يأت بشيء ولكنه جاء للزيارة، والآخرون لم يأتوا للزيارة ولم يأتوا بالحساب. تقول له إنهم لم يعرفوا في أي مستشفى هو، وتعطيه لفافة يفتحها ويَعُدُّ النقود وهو يُدِيرُ وجهه للحائط، ثم

يضعها تحت الوسادة. يطلب من المرأة أن تُحضر له في الزيارة القادمة جهاز التلفزيون الصغير حتى يتتبع بقية حلقات المسلسل كما يفعل جيراننا في الغرفة المجاورة، وأن تحضر له بعض الأكْلاَت الخاصة، بغير ملح طبعا. يظل يتكلم عن الممرضة العبوس والممرضة البشوش، وأنه قد رشا الممرضة العبوس كي تبتسم، ولكنها أخذت الرشوة ولم تبتسم. يسأل المرأة عما يكون الطبيب قد قاله من وراء ظهره، ويقول إنه لا يصدق كلام الأطباء كما لا يصدق الحسابات التي يقدمها له سُوَّاقُ سيارات الأجرة.

المشهد الذي غَيَّبَتْهُ الستارة وطَوَاهُ الظلام هو مشهد الجمال. كان أحدها بَارِكاً خلف تَلٍّ صغير يحاذي ماء البحر. لم يظهر في البداية سوى ثلاثة، ثم جاءت الجمَال الأخرى. حين رأيتُ الفُسْحَةَ الرَّمْلِيَّةَ، في صباح ذلك اليوم الأول، لم أعتقد أن الشاطئ يمتد إلى ذلك المكان، حتى جاء المساء ومَدَّ البحرُ فرأيت المُوَيْجَات الصغيرة تندفع بهدوء وفُسْحَة الرمال يغطيها الماء. تكاثر عدد الجمال ولم يظهر أي راع. كانت تأتي وحدها في الصباح وتنسحب من المكان في المساء. حين سألت الممرضة العبوس عن سكان تلك الفيلات البادية على بعد، المنتشرة فوق الهضبة، كنت فقط، أرغب في أن أراها تتكلم. لكنها لم تجب. إلا أن الرجل الجالس قبالة شاشة التلفزيون قد وجه نفس السؤال إلى أحد سواق سيارات الأجرة حين جاء للزيارة ودفع الحساب، فأجابه بأن منطقة المصايف هذه لا تكون آهلة إلا في الصيف، ووافق صَاحِبَهُ مُؤَكِّداً أننا لا نلاحظ أية أضواء في الليل، ثم أخذ يسأل عن سعر المتر في ذلك المكان.

جاءت الممرضة العبوس وأسدلت الستارة. لم تطفئ الضوء، لكنها عادة، وبعد أن نطفئ الضوء تأتي مرات متعددة وتضيء الغرفة ثم تطل على وجهينا الواحد بعد الآخر. حتى وإن كان أحدنا قد غطى وجهه بالإزار أو البطانية فهي تُعَرِّيهِ وتطل.

تنظر إلى الوجه في الضوء ولا تقول شيئا، ثم تطفئ الضوء وتنسحب. تفعل هذا عدة مرات في الليلة، وكل ما يتبقّى أمام العين هو مَشْيَتُها المسترجلة، وبعضٌ من الزبد الظاهر على جانب الفم، مع انزواء دائم بين الحاجبين.

لا شيء قبل هذا أو بعده سوى الظلام وهذا الرجل المُعلّق من أهدابه ومن نِيَاطِ القلب. وفي هذا الظلام يمكن أن تتراءى كل الكائنات وكل الصور، وأن يَتِمَّ تأجيل أي قرار ما دام الطبيب لم يقرر أي شيء.

□ □ □

صورة بيضاء،

بالأبيض والأبيض،

حين جاءتني عرفت أنها الصورة الوحيدة الممكنة، في دهاليز هذا العالم.

□ □ □

ربما كان صوت انفجار، فلقد سمعتُ ارتطام بعض الأشياء ببعض الأشياء، حين طقطقت ذؤابة الشمعة، خشخشت أوراق الكتاب، ثم تحرك حَفيفُ الشجر ونَشيشُ أمطار وكأنَّ غابة تحتل فضاء هذه الغرفة وتَهزُّها بالعواصف والرعود. انفجار قنبلة في مكان قَصِيّ. انهيار قنطرة على نهر. لثمةٌ أراد العاشق أن يسرقها من ثغر المعشوقة ثم تراجع بعد أن أرهبه صوت الانهيار المفاجئ. قطرة عرق تَنْبَجِسُ من جبين الرجل الجالس أمام شاشة التلفزيون وهي تنحدر على خده دون أن تمتد يده لتمسحها، بالرغم من وجود المنديل على الطاولة، وبجانبه تلك الرصاصة الطائشة التي كادت تصيب رأس الرجل. إطلالة رؤوس أفاع من بين الأحجار. وفيف أجنحة طائر. ضجيج آلة وصفيرٌ يخترق الفضاء. لُهَاثُ رجلٍ مُسِنٍّ يصعد الأدراج. يظهر الرجل المُسِنُّ على الشاشة وهو يجد صعوبةً في حمل قدمه إلى الدرج الموالي،

وكأنه طفل يتعلم صعود الأدراج، يقوم بالمحاولة بصبر وهو يلهث، ثم يعيد وضع قدمه على الدرج الذي يقف عليه، وحين تظهر امرأةٌ نَازِلَةٌ تتجاوزهُ وهي تضحك، تستدير وتنظر إليه من الخلف وهي تضحك. موائد مَصْفُوفَةٌ وأصوات الملاعق والشوكات وهي تصطدم بالصحون. الكلاب بَحُّها النباح فأخذت تَهِرُّ وترفع رؤوسها مُتَحَدِّيَةً قُبَّةً مَنْصُوبَةً من فراغ. الشريط ينقطع ويتوقف صوت المغنية ويتوقف معه دَفْقُ العواطف الجياشة. مناغاة. ضحكات سكرانة. هديل حمام. طقطقة سرير ناء بثقل الجسد. خطب حماسية وهتاف. عصي وهراوات. ارتجاف أوراق الكتاب. خَفْقُ نَهْد. زلزالٌ يَدُكُّ المدن. صمت. صمت كالصمت، كاختطاف الأشياء والأصوات لحظة توجد. الصمت، ولا شيء يسمع سوى لُهَاث الرجل المُسِنّ الذي يصعد الأدراج، وهو ما يزال في مكانه، يبذل محاولة أخرى لتصعد قدمه الدرج، وهو يحملها بيديه إلى الدرج حملا ولكن جسده لا يقوى على أن يندفع نحو الأعلى ويصعد هو الآخر مع القدم. ثم يرى الرجلُ الجالسُ أمام شاشة التلفزيون المرأة التي كانت قد نزلتْ وهي تصعدُ الأدراج، تنظر إلى الأعلى، وتتوقف، ثم تَنِطُّ بخطوات خفيفة فوق الأدراج، وهي تضحك، وحين تتجاوزُ الرجل المسن تستدير إلى الخلف وترى حركاته المحاولة، دون جدوى. يغيب صوت لهاث الرجل، وتغيب صورته، ولا يبقى شيء سوى الصمت. صمت كالصمت، كصمت المقابر، أو كالصمت الذي يَعْقُبُ انقطاع الشريط.

□ □ □

لم أكن قد توصلتُ إلى أي قرار. في هذه اللحظة بالذات أخذتُ أشعر بتباطئ بعض الصور، وانحدارها في جُبٍّ أو قَرَار. تضيع الصور وتتبدد، تتلاشى ولا يبقى أي شيء سوى هذا المشهد الخارجي. لن أقرر أي شيء في لحظة كهذه. سأظل

هكذا، ذا عينين سَلْبِيَّتَيْنِ تأتي إليهما الرؤيةُ بدل أن تختارا ما تريدان أن ترياه. حالة مؤقتة سوف أستوعب فيها معنى الهزيمة. مع أن المشكلة ليست فيما تراه العينان، فهما بكل تأكيد تَرَيَان أشياء وعالم الذاكرة، موت الموت، تأجيل المؤجل، تغييب المَوَاجِعِ في آبار عميقة يُخَبِّئُها الجسد، واستحضار الصخب والخمر وكل وجوه الطفولة، وكل اللوثات العقلية التي تجعل العالم ممكنا وقابلا للمطاوعة.

لا أستطيع هنا أن أرى شيئا سوى ظلام الغرفة. مع أن الأصوات هكذا، بصورة مفاجئة، لا بد أن تأتي إليّ، حتى وإن أَجْهَدَ المشرفون على المصحة أنفسهم في الحفاظ على السكينة. لكن التصاوير أبهجتني. لم يكن في الفضاء أي اخضرار. عالم قيامي. أشجار ذات عيون رائية. وطاويط تنشر أجنحتها وفي السماء شمس وقمر. صفاء في الجو وأضواء كاشفة ملونة. ظهرت على التصاوير أنصاف الأشياء. هذا نصف وجه أمي، نصْفُ وجهها الذي تظهر عليه الشامة، والشامة في الأصل، هي شامة جدي، والدها، لكنها انتقلت إلى خدي الأيسر. ظهر في أحد التصاوير نصف ورقة نقدية، ونصف طريق هو خط الذهاب، ونصف ابتسامة، ونصف دمعة مُعَلَّقٍ على نصف عين، ونصف فرحة، وظلت الأنصاف وحدها هي التي تظهر في التصاوير. كانت التصاوير هي الأخرى بادية على الشاشة، كما أبدو أنا ويبدو تدافع الموجة نحو خد الرمل، ويبدو القنوط على وجه زوجة الرجل المعلق من نياط القلب، ويبدو كل تلك المطاردات التي سبق أن رأيناها، والرجال الذين يحملون الرايات كما يحمل الإنسان زهرة، يَجُرُّونَ وراء العسكر والرجال المشبوهين، وحين يظهرون لهم الرايات الصغيرة، التي لم تكن خفاقة، يتساقط بعضهم وكأنهم قد أصابوهم بالرصاص. تظهر النساء الذبيحات. أعناقهن مَنْحُورَةٌ بغير أن يظهر الدم. الأثداء

عارية. الماء في السقاية وحده ظل يشرشر. كما ظهر على الشاشة ذلك الرجل المتلق من نياط القلب، وهو ينظر إلى الشاشة ويشاهد أنصاف تلك الأشياء التي تظهر على الشاشة هي الأخرى، ويراقب باهتمام كبير حركة السيارات السائرة في ذلك الطريق الواحد الذي هو طريق الذهاب، يتتبع تجاوز السيارة الحمراء لكل السيارات الأخرى. تصير الطريق بين طنجة والرباط بادية كلها، وبوضوح كل المدن والمحطات والقرى، وكأنها قد صارت فوق راحة اليد. كلنا نراقب تلك السيارة وهي تمضي في الطريق، تصعد المرتفعات وتنعطف مع كل منعطف. لم يظهر لنا أي سائق أو راكب، وقد انشغل بها الرجل الجالس أمام شاشة التلفزيون، يتتبع باهتمام اتحادها مع السيارات الأخرى، ويلتفت نحوي ويقول : إن شاء الله توصل فالوقت. غدي توصل فالوقت يلا ما لقاتش فالطريق شي حاجة، أو ما وقفوهاش الجدرمية. حين عرفت أنها سيارة من سياراته، بَطَلَ عَجَبي، وبقيت مثله أراقب ظهور طريق طنجة الرباط بكل امتداده على الشاشة، وكأنه فوق راحة اليد.

الوطاويط تنشر أجنحتها. نصف نهار ونصف ليل. صخور رمادية وأنهار ماؤها عكر. أشجار البلوط. نصف وجه أمي ونصف عين ونصف فرحة ونصف ابتسامة، والسيارة الحمراء راحت، اختفت رغم أن الطريق بَاد، وقد ظل الرجل الجالس قبالةَ شاشة التلفزيون يضرب يدا بأخرى، يتحسر وهو يتمنى ظهورها من جديد، وقد سألني هل انتبهت إلى مكان انطلاقها فأجبته بأنها قد انطلقت من طنجة. قال من أي مكان في طنجة ؟ فأجبته بأن ذلك لم يظهر في الشاشة. أوضح لي بأن كل شيء كان يظهر وأنا لم أكن أنتبه، فقد خرجت السيارة من الميناء بعد أن تم شحنها بصناديق زجاجات الوسكي، وهي الآن في طريقها إلى الرباط، وبالضبط، إلى مقهى " باليما "، وأخذ

يردد : إن شاء الله توصل فالوقت. إن شاء الله توصل فالوقت باش تصادف الميعاد. يضرب يداً بأخرى ويَتَحَسَّر. وحين ظهرت السيارة من جديد على الشاشة رأيت الرجل الجالس أمام شاشة التلفزيون وهو يجلس بجوار السائق، يحرك يديه بإيماءات وإشارات وهو يُكَلِّمُهُ في بعض الأمور. قال لي إنه يَستَعْجِلُ الوصول، فلديه موعد في مقهى " باليما " مع أحد البرلمانيين لتسوية بعض الأمور الهامة، وأنه خائف من أن تَتَأخَّرَ السيارةُ عن الوصول في الموعد. رأيت السيارة تتوقف، ويتسلمها رجل ليذهب بها إلى مكان بعيد ويبدأ إفراغ شُحْنَتِهَا، وفي نفس الوقت الذي كنت أرى فيه عملية إفراغ الشاحنة، كان الرجل الجالس أمام شاشة التلفزيون يظهر وهو يقهقه مع رجل آخر يدخن السيگار، ثم رأيته يعطيه بعض الأوراق ويسلم عليه بحرارة، ويغادر المقهى ليلتقي، على ما يبدو، بأحد العملاء، ثم يدخل حانة في شارع محمد الخامس ويشرب ثلاث زجاجات من البيرة، ثم يذهب بامرأة يبدو أنها كانت تنتظره منذ مدة طويلة، يدخلان شقة يبدو أنها شقته، فقد رأيته يُخرج المفتاح من جيبه ويفتح الباب بنفسه، ويتصرف في المكان، فقد أخرج زجاجة الوسكي من الثلاجة، وأحضر الثلج والكأسين وصحن اللوز. كان اللوز مقشرا، وقد أخذت المرأة تلتهمه حبة بعد أخرى. بعد أن التقى بتلك المرأة، ذهب إلى مكان التقى فيه بنفسه لقاءه الأخير، وقد رأيته جالسا قبالتي يتتبع كل شيء، ويرى نفسه في لقائه مع نفسه.

□ □ □

الصورة البيضاء،
مكانها قبالة العينين،
صورة بالأبيض والأبيض،
كأنها صورة البدء.

□ □ □

قبل أن يلتقي الرجل الجالس قبالة شاشة التلفزيون لقاءه الأخير مع نفسه، سألني عما يمكن أن يصنعه الآن بدفاتر حساباته الشهرية، وبسيارات الأجرة، وبالخوابي الكبيرة التي اشتراها قبل أن يدخل المصحة، أيَمْلَأُهَا بالسمن والعسل، أم بالخمور والخمور، أم أن عليه أن يملأها بالتراب وبالتراب وبالتراب ؟ قبل أن يكمل بقية أسئلته دخلت زوجته الغرفة دون أن تطل في هذه المرة على مكانه وتتراجع، ودون أن تشهق أو تتظاهر بالسقوط، دون أن تقول لم أكن أتوقع أنه ما زال على قيد الحياة، ومن غير أن تسهم نظراتها في مشهد الجمال، فقد ردت على أسئلته كلها، حتى تلك التي لم يطرحها، قائلة لي : أنا. أنا سأتولى كل هذه الأمور، ثم أخبرتني بأنها هي أيضا كانت تجلس أمام شاشة التلفزيون، في مكان آخر، وتشاهد كل شيء.

أسطورة الشمال

ه أنا أتوقف قليلا، مَدْهُوشاً بكل هذا العالم الذي يأتي إلى عينيّ، زَاهِياً وعَاصفاً كأنه ذلك النشيد الذي صحوتُ من حلم فوجدت نفسي أَقُصُّهُ على نفسي وأنا أرقص ثم أبكي ثم أغرق في التأمل، دون أن أعرف الحالة التي صرتُ عليها خلال اليقظة، فقد أصبحت أتذكر ملابسي الغريبة، وملامحي التي كنت أراها في الحلم من غير مرايا، والأشياء المحيطة بي وقد صارت مهرجانا للأصوات والحركات المتعددة المعاني. هل توقفت ؟ لعلي قد توقفتُ عن المسير على هذا الطريق الرملي، غير المُرَصَّف، وقد هَدَّأَتِ الأمطارُ ثَوَرَانَ الرمال بعد أن بَلَّلَتْها قليلا فَهَدَأَتْ، رغم الريح العاصفة.

أكون الآن قد نسيتُ ذلك النشيد، وها أنا أرى البحر والمقابر، وأرى خطاي التي عَبَرَتْ هذا الطريق مرات ومرات، دون أن أرى هذه الأشياء كما أراها الآن. فتحت عيني الغائمتين ورأيت نفسي أتوقف عن المسير، ثم عرفت أن هذا التوقف قد جاء نتيجة لتعبي. لم أفكر في التوقف ولكني توقفت، وحين فعلتُ ذلك أخذت أحاول أن أعرف لماذا، فوجدت أن التعب هو الذي يبرر ذلك، وكذلك ثِقْلُ الخضر والفواكه التي أحملها بين يدي.

البحر والمقابر.
أشجار السِّدْرِ والصبَّار.
الأرض العَفْرَاء.
القِبَبُ المَنْخُورَةُ والشواهد المُتَهَدِّمَةُ وعيون البُوم.

البحر وراء كل شيء يبدو مُنْبَسِطاً لامعاً كَحَدِّ السيف، في زُرْقَتِهِ المُغْرِيَة تَبَدُّدُ رُؤْيَةِ هذا الخراب. لم ألحظ سفينا أو زورقا يخْدِشُ هذه الصفحة الزرقاء المنبسطة، الممتدة بعيدا. مع أنني لم أحسّ بوجُود البحر، رغم أنه يمتد في زرقته المُعَكَّرَةِ بالسواد. لم يخترقني، لم يدخل مساحة من اهتمامي وكأنه شيء زائد، لا

يعني أي شيء ما دام لا يحمل إلي أية معان. أضحكتني فكرة الغرق، وفكرة الصيد، وفكرة السباحة. ها أنا أضحك ! حتى فكرة الشكوى أو التأمل أو البوح تبدو مُضْحِكَةً ولذلك فأنا أضحك الآن بصوت يسمعه البحر.

من الجهة الأخرى تعبر السيارات والشاحنات الأجنبية المُحَمَّلَةُ بالسلع. هذا طريق سيَّارٌ تمر عبره البضائع إلى إفريقيا. وسواق الشاحنات يُلْقُونَ بزجاجات البيرة الفارغة، ويمكن أن تُلْمَحَ وجوههم السمينة في لحظة مُرُوقِ الشاحنة. ظللتُ واقفا كي أرتاح، والخضر والفواكه بين يدي. متى أصل إلى الهضبة وأفتح الباب ثم أتهاوى على الكرسي كي أسترد بعضا من هذه الأنفاس المتقطعة ؟

هذا أ[illegible] ! علي أن أتذكر. نسيت وجه الدكتور، والأشياء الأخرى التي جاءت بعد رحيله. عندما جئت من الجنوب لم أكن أتصور أن الشمال يملك كل هذا البذخ وهذا البهاء في كل شيء. الشمس رأيتها غير الشمس، والمقاهي غير المقاهي. اللغات المتعددة واحتفاء الناس بالأعراس والورد والدموع. الرجال يبكون والنساء يبكين متنهدات والخدود تَحْمَرُّ وبخار الدمع يتصاعد على الخدين. شفرات الحلاقة والندوب الغائرة على الخدود والجباه. أطفال على وجوههم الندوب. السكاكين والقتل والعملات الأجنبية والمُسَدَّسَات. لم يكن عليَّ أن أعود. الشمال هو طريق اللاعودة. لم أكتب الرسائل. نسيت أهلي ولم أُرسل شيئا من هذا الشمال لهم. ضاعت مع السنوات أسماؤهم وملامحهم كما ضاعت الأصوات والحركات والإيماءات. لم يصر لي في الشمال أهل، فقد خفت أن يحبني أحد، رجلٌ أو امرأة، صَدِيقٌ أخلص له أو امرأةٌ أقترب منها وأتزوجها فيصير لي أطفال في هذا الشمال بعد أن لم يكن لي أطفال أو امرأة في ذلك الجنوب. حُبٌّ أهل الشمال قاتل. لماذا أبحث عن الحب

والناس هنا يقتلون إنساناً لأنهم يحبونه؟ يقتلون ويتحزون أو يضحكون بجنون طوال بقية العمر. كل الرجال والنساء في الشمال يفعلون هذا، وأنا رأيت مثل هذه الأشياء. رأيت طفلاً شماليا يَتَوَلَّهُ في عيني طفل في مثل سنه قبالة المقهى، توقفه ويتطلع إليه بعشق والطفل الآخر يَتَبَرَّمُ منه والناس ينظرون دون تعجب أو استغراب، ثم أخرج سكيناً وبادره بطعنة في القلب. ورأيت المرأة العجوز وهي تخرج من إحدى الدور ويداها مُلَطَّخَتَان بالدم، وهي تبكي وتقول للناس بلا هدى قتلتها، قتلتها، وكأنها حينما هَمَّتْ بقتلها لم تكن تعرف أن ذلك هو القتل. رأيت أكثر من كل هذا ورأيت الحمقى الواقفين أمام المقاهي ووراء كل واحد منهم حكايةٌ قَتَلَ فيها من أَحَبَّ، امرأةً أو صديقاً أو ابناً أو خليلة. الدكتور أكد لي هذه الأشياء وهو يتحدث عن عزوبته الدائمة وعزلته عن الناس. قال أن يكرهوني ويصفوني بالتَّزَمُّت والعزلة خير من أن يحبوني ويقتلوني. وقال لي لا يمكن أن نتحدث عن الموت هنا في الشمال، فمن النادر أن يموت أحد. كل الناس لا يموتون. يُقتلون. كل ميت لا بد أن يكون مقتولاً. تحايلت مثل الدكتور حتى أعيش ولا يقتلني أحد. شابَ شعر رأسي. ها هو الشارب الأشيب المجاعيد. لم يقتلني أحد ولذلك ها أنا أتوقف عن المسير كي أرتاح قليلاً ثم أواصل الطريق. تعلمتُ الإسبانية وساعدت الدكتور في علاج الجنود الإسبان. وَشَيْتُ ببعض الملكيين الهاربين إلى هذا الشمال، وهذا أنا لم أقتل. شربت كأسي وحيداً. نِمْتُ مع جسدي. هربت من الحب حتى لا يقتلني أحد. أغلقت كل الشبابيك ولم أر غير صورة المرآة.

الأنفاس تتصاعد.

دقات القلب تتلاحق.

صعدت هذا الطريق المرتفع أخطو وسط رصيف مليء

بالحفر والحجارة، رماله قد هَدَّأتْهَا زَخَّاتُ مَطَرِ الليلة الماضية. قالوا ينتظرون إحدى الزيارات الرسمية ليرصفوه.

الحقول المترامية تتراءى عند الهضبة وهي تَمُدُّ أطرافها نحو المُنْحَدَرِ مِنَ الجهة الأخرى. شَمَمْتُ رائحة البحر. رائحة الأرض ورائحة البحر تتمازجان، تَنْسَكِبَان في روحي وتجعلانني أكثر ابتهاجا وإحساسا بالحب، لِرجل ؟ لامرأة ؟ لصورة أو ذكرى أو مرآة ؟ ربما ! حب الأهل الذين نسيتهم في ذلك الجنوب ؟ حب الله ؟ حب الوحدة والكأسِ وأصواتُ البحر تأتي إليّ ؟ حبٌ صبية رأيتها في المنام ؟ حب الحياة وحب فاكهة الخوخ، إذا كانت ثمرتُها كبيرةً ومُزَغَّبَة، يتقاطر منها الماء الحلو بعد عضة أو عضتين ؟ حب الأهازيج، وصوت محمد عبد الوهاب وهو يغني :

عندما يأتي المساء

و

سجا الليل ؟

حب أمي التي لم أعد أتذكر شيئا عن احتضانها لي وتَقْبِيل الخدين. حب أهل الشمال. ربما كل هذا الحب ! ولكني لم أجد شيئا من كل هذا في حياتي حتى أحبه، وإن وجدت شيئا من هذه الأشياء في حياتي فهي سرعان ما تختفي وتضيع ولا يبقى منها شيء، وكأنني قد رأيتها في الأحلام، أو كنتُ أتخيل، فتبدو لي قادمة من زمن بعيد. وكأني لم أعش معها وأرها بعيني ولم أسمعها بأذني، كأن ذلك قد جاء إلي في حلم أو خيال.

المسافات والاخضرار والماء ورائحة البحر. نظرت خلف السور ورأيت المقبرة. القبور متناثرةٌ تبدو شَوَاهدُهَا ناصعة بيضاء رغم الخراب والتهدم. يأتي أهل الموتى ويَرُشُّونَهَا الجيرِ من حين لآخر. يريدونها أن تظل بيضاء. بَيَاضُ القبور هو بَيَاضُ الأرواح، بياض الذكرى التي أنساها الموت الحقد والجروح، بياضُ القلب،

بياضُ نهار الميت وليْله، بياضُ خاطر أهل الميت، وهذا هو بياض القبور. كل المقابر التي رأيتُها أو حلمتُ بها لم تكن تتشابه في شيء. هذه مقبرة بيضاء. أشجار الدر والصبار. لا رائحة للموتى. لا رهبة ولا خوف. لا أسرار لهذه المقبرة. حين كنتُ قد رأيتُ إحدى مقابر النصارى ظننتها حديقة. كنت وقتها صغيرا، أخرج من المدرسة الابتدائية وأذهب مع الرعاة، فَتَزُوغُ بنا الخطى نحو مقبرة النصارى. كان ذلك في الجنوب. نشم شذى زهر البرتقال والليمون من المزارع، ونتجاوز السور الحديدي كي نتجول وسط الأكاليل والممرات المَرْصُوفَةِ بحجارة نظيفة. الحارس يُعْطِينَا الكعكات ويبتسم وهو يشرب خمرته من القارورة. يمنع دخول الماعز ويسمح لنا بالدخول. الرخامات البيضاء والكتابة. الممرات. الصُلْبَان والأكاليل. كل شيء بَادٍ، كأنَّ الميتَ يَتَفَسَّحُ في حدائق وجِنَانٍ وعرصات.

في مدينتنا الصغيرة بالجنوب لم يكن هناك يهود. حين عرفت أن الدكتور يهودي إسباني لم يهمني الأمر. كان يداوي المرضى وهو يبتسم. يسأل عن المرض وهو ينظر إلى الأرض. يخاف من عيون المُمَرِّضِينَ ومن عيون المرضى. لا يتكلم إلا قليلا، ولكن الأدوية التي يقدمها ناجعة. حين رافقني الدكتور لزيارة المقبرة اليهودية، بعد أن كنا في نزهة على شاطئ الصخور، ذكر لي أن الشَّوَاهدَ قصائد، رِثَائِيَاتٌ يكتبها الموتى للموتى في لحظات تَنْفَلِتُ فيها أصابع الزمن من بين كل شاهدة وأخرى. لم أفهم شيئا مما قال. أخذ يُكَلِّمُ نفسه وهو يقترب من بعض الشواهد، ويُمَرِّرُ أنامله على بعض الكتابات. يقول ها هي دموع الوداع، والأغاني، والحكايات ونَبْضُ العروق، والسهرُ والعشْقُ ورقرقةُ ماء الحياة. ها هي الشموع السهرانة، ورَفيفُ أهداب العين، واللثمات، والهمس، وما يقوله الجار للجار. كان يتوقف عند رخامات بعض الشواهد وأنا أتقدمه في المسير قليلا دون أن

يَعْنِيَنِي كلامُه الخاص مع نفسه في شيء، وقد سألته إنْ كان له أَهْلٌ موتى في هذه المقبرة، ولكنه لم يرد على سؤالي، وقد ظل يردد : نَبْضُ العروق، الدموع، رفيف أهداب العين، الشموع السهرانة... فتركته يقول مع نفسه ما يشاء وقد تركت مسافة بيني وبينه ونحن نسير وسط القبور.

هل مات الدكتور أم أنا قتلته ؟ كان يخاف أن يُقتل، لكنه لم يكن يُعَبِّرُ عن هذا الخوف لأحد، كما لم يكن يتحدث في أموره الخاصة. هل يمكن أن أكون مَنْ قتل الدكتور ؟ لم أكن قد أحببته حُبّاً قاتلا على طريقة أهل الشمال، ومع ذلك فمن يدري، ربما أكون قد قتلته ! لا أعرف. لكنه مات أو قتل ! لا أعرف.

هذ[illegible]ي أكياس الخضر والفواكه. لم أشتر لحما. سأَقْلِي بعضا م[illegible] سمك الذي حفظته في الثلاجة. لحم الشمال لا يعجبني. لا طعم له. أتذكر طعم لحم الظأن في الجنوب. طبيخ الوالدة، والمشويات. كنا نأكل اللحم يوميا أو يومين في الأسبوع، ولكننا نَشُمُّ رائحةَ الشِّوَاءِ كل يوم في الشوارع والطرقات. جنوب العبور. كل الشاحنات تعبر الجنوب وسيارات النقل، والسُّوَّاقُ والركاب يشتهون لحم الجنوب. لم أشم رائحة شِوَاءِ الجَنوب في الشمال. في الشمال شممت رائحة جسد آدمي يحترق. كان ذلك في عصر أحد أيام الصيف، والنار تأكل الجسد حتى تَفَحَّمَت العظام بعد أن أَكَلَت الثيابَ والشعرَ والجلد. كان يَتَلَوَّى، يَتَمَرَّغُ في الأرض ويصيح بيأس حتى هدأ الجسد المَحْرُوق في مكانٍ وظلت النارُ مشتعلة لا تريد أن تخبو. لم يقترب أحد. كنت وحدي أصرخ وأعض أصابعي دون أن أستطيع الاقتراب. كان ذلك في حلم، بعد أن جاء إلى المستشفى رجل محروق ورأيتُ جسده المُشَوَّه. مات بعد ساعات. في حلم تلك الليلة شممت الرائحة، وقد بقيت أَشُمُّها في البيت وفي كل

مكان لعدة أيام، وأنا أنام وأصحو على أحلام تختلط فيها الصور والأحداث والإيماءات والحركات الطائشة، والأماكن التي لم أرها في حياتي. حين صحوتُ في إحدى مرات الصَّحْو، استرجعتُ حلمَ الجدار الذي احترقت منه طبقة الصباغة ونفذ الإحتراق إلى الآجر. سمعتُ الجدارَ يتحرك ويئن، ينتفض وكأنه يريد أن يَبْرَحَ مكانه ويقترب من الماء. صارت له ملامح آدمية وهو يُطَقْطِقُ ويشكو ويحاول أن يخرج من منطقة الحريق. لا نار. النار في جسده وهو يحترق. شممت رائحةَ احتراقِ آدمي، وقد صارتْ للجدار عينان مفزوعتان تخرجان من محجريهما والنار منهما تقترب. لكنه الجدار. جدار مقهى، وقد عرفت ذلك حين رأيت الصحون والفناجين والوجاف والكافتيرة، وكان ذلك في الشمال، فقد أحسست بأنه الشمال دون أن يظهر ما يُبَيِّنُ ذلك. ثم صار ذلك الحائط يبكي. الدموع تنهمر من عينيه وهو ينظر إليّ. رائحة الشياط. الطقطقة. قشور الصباغة المحترقة تسقط على الأرض والدخان منها يتصاعد. العينان تنطفئان، تأكلهما النار، ومن الفم والأنف يخرج دخان كثيف أسود، يملأ كل فضاء المقهى فلا يظهر شيء سوى السواد الفحمي، من وَسَطِهِ تنتشرُ رائحة احتراق جسد آدمي.

ها هي المقبرة.

الشواهد والقبب وعيون البُوم.

السِّدْرُ والصَّبار.

أتذكرُ مقبرة الجنوب التي تخرج منها "ابْغيلَةْ القبور" بأرجلها الثلاث وهي تصيح وتَتَوَحَّشُ، تُرعب الموتى وتُؤَرِّقُ لياليهم، تدفعهم نحو الجنون، تُبَدِّدُ تجمعاتهم وتُوقِفُ الحكايا والأسرار. حين يرونها تتسلل بين الشواهد، خلسة، يبدأون في التوسل والخنوع بعد أن عرفوا أن ساعة العذاب قد جاءت. الأرجل الثلاث والصراخ المُرْعِب والإستيحاش. لا أحد منهم

يقوى على طردها من المقبرة. تموت الضحكة وتموت الحكاية وتموت الشتائم والنميمة وإيماءات اللَّمز. يموت كل شيء ويبقى التوسل. ألهذا جاءت ؟ هذه هي مقبرة الجنوب. هنا في الشمال مقابر للقطط والكلاب. مقبرة الجنوب قِبَابُها مَنْخُوبَةٌ ذات فتحات أربع لا تحتوي على أي ضريح. مجرد قباب بَعْثَرُوهَا وَسَطَ المقبرة لا أعرف لماذا، ربما لتملأ فراغا عَصِيّاً على العين في ذلك المكان، أو لِتُفْسِحَ للخيال آفاقه الواسعة. خيال الموتى أو خيال الأحياء ؟ خيال الدكتور ؟

قباب تتوزع ولا تَلْتَقِي. لا تُوَاجِهُ الواحدة منها الأخرى. ويمكن أن ننسى وجوها، ما دامت لا تعني أي شيء. ربما تدخلها الأرواح وتخرج منها في رحلة لا نهائية تبدأ من الأبواب المفتوحة وتنتهي إلى نفس الأبواب. دخول وخروج. خروجٌ من الدخول ودخولٌ إلى الخروج بحثا عن الجسد المفقود أو عن الذات. لم يُسَمُّوا تلك القِبَابَ باسم ولي، والوَلِيُّ ضاع قبره وصار مَنْسِيّاً. كم ليلة جاءتني فيها كوابيس تلك المقبرة التي رأيتها في الجنوب وأنا صغير ؟ عرفت فيما بعد أنها مَقْبَرَةُ ضَرِيح، مقبرةُ مَارِسْتَان، مقبرةٌ للحياة الليلية، لِلْمُشَرَّدِينَ والقَتَلَة، وقد رَغِبْتُ في ألاَّ يكون قبري هناك. وهذه المَقبرة لا تُوقِظُ لحظةَ رُعْبٍ صغيرة في ليلي، وقد كنت أقطع هذا الطريق في ساعات مختلفةً من الليل، دون أن أرى أو أسمع أي شيء.

أكياس الخضر والفواكه تُثْقِلُ يديّ. تنهدت. تصاعدت دقات القلب. لمست الجبين فوجدته مُبَلَّلاً بعرق بارد. شهقتُ شهقةً صغيرة وتساقطتِ الخضرُ والفواكه من بين يدي، ولعلي بقيت هناك.


الشبابيك

طوله حتى يُشْرِفَ على المدينة وهي تَتَكَاثَفُ بِنَايَاتِهَا المتداخلة، وقباب الأضرحة والصوامع وأشجار باحات المنازل، وَيَرَى الأضواء التي تَهْرَبُ من النوافذ والأزقة وبعض الحوانيت الساهرة.

هذا وقوفُ الصمت والانتظار قال الرجل الواقف. هذا هو وقوف اجْتِرَاح المكان وتَجَلِّيه. قال وقوفُ كلِّ المَرَائِي هذا وأنا أنتظر وأستحضر. قال أنا وَصَّافُ الأماكن عَرَّافُهَا وهذا هو عالمي الصغير وقال سوف تَتَهَدَّمُ هذه المدينة وقال سوف تأتي إليها كل المدن وقال وقال وقال.

الدروب تنحني، تَلْتَفُّ وتستدير وتَصْعَدُ هابطةً من الأسوار إلى الأسوار حتى تغزوها أشباح الليالي، والرجل ينظر إلى تحت، إلى نُقَط الضوء المتناثرة، كي يرى شُبَّاكاً واحدا مفتوحا وامرأةً تُطِلُّ بوجهها البَهِيِّ الأبيض ورأسها الملفوف في منديل رُمَّانِيِّ اللون. والمرأةُ لا تطل، والشُّبَّاكُ يتداخل مع عدد لا يحصى من الشبابيك المغلقة اتِّقَاءً للبرد أو دَفْعاً لعيون التَّلَصُّصِ والفضول.

امرأةٌ ليس لها جسد النساء. لها قوادم نسر وعينان كعيون الحيتان. قال وهو يُدَارِي الدمعة أو الضحكة، اسمها فاطمة الزهراء، تلك التي رأتْ حزامَهَا في السماء، ثم صار الأطفال، كل الأطفال، كُلَّمَا رفعوا أعينهم إلى السماء يَرَوْنَ الحزام المُلَوَّنَ في السماء، وقال كنت أراه وأنا طفل، هي رأته وأنا ما زلت أراه وأرى الحزام الملون في السماء وأرى العينين في البحر والقوادم في قمم الجبال، لكنها تجمع السماء والبحر والجبل، قال وانحنى مُحْتَوِياً كل الشبابيك بذراعيه يُغَالِبُ ضحكةً أو دمعة.

موتي أنا قال.

في تلك اللحظة، انفتح شباك في أحد الدروب، ثم أَغْلَقَتْهُ يدٌ خفيةٌ من الداخل. سُمِعَتْ صَرْصَرَةُ الْتِقَاء الدَّفَّتَيْن، وأطلَّ بعض الجيران على الدرب، بعد أن فتحوا شبابيكهم، ثم

أغلقوها وعاد الصمت إلى الدرب. في تلك اللحظة، لم تتهدم المدينة، لم يَمْحُهَا زلزال ولم يَدُكَّهَا إعصار، لم يَتَغَيَّرْ فيها شيء، وخطوة هذا الرجل الواقف تتوقف عند الزقاق المفتوح الطرفين، والعين تَنْسَرِبُ بين تلافيف الأسوار وانْعطَافَات الدروب. العين هي التي قالت فاطمة الزهراء، واخترقت أَعالي السطوح، تحاول أن تُطَوِّقَ الجسد المسكون بالطفولة والتّوهّج والجنون. قالت العين فاطمة الزهراء ماتت وقد جئتها بكل المَرَاثِي، وبالفرح، وبالأغاني وبكل الأوقات الجميلة، وبالخروج والضحك وكل ما يُبْهِج، فَخُذِي يا فاطمةَ الزهراء كل هذه الأشياء وأطِلِّي لحظة وابتسمي حتى تشرق أنوار هذا الليل. لم تُطِلَّ فاطمة الزهراء ولم تبتسم، ففي تلك اللحظة، كان أحد سكان الدرب يطرق باب داره طَرْقاً شديدا ولا أحد يفتح الباب، يطرق بِجُمَاعِ يده ويصرخ بأسماء كثيرة منها عبد الهادي وعبد الرفيع وخديجة وأسماء والبتول، وهو يتوجه بصراخه نحو أحد الشبابيك، ثم يعود إلى طرق الباب ومُنَادَاة عبد الرفيع وخديجة وأسماء وعبد الهادي والبتول وأسماء أخرى لم يَتَبَيَّنْهَا الرجلُ الواقف بجوار عمود الكهرباء، وحين لم يفتح الباب أحد خرج من الدرب مُهَرْوِلاً نحو جهة ما. قالت العين فاطمة الزهراء ماتت في غرفتها الصغيرة في هذا الدرب. قتلوها. لا أعرف كيف قتلوها ولكنها ماتت وهي سهرانة قبالة نور ضئيل لشمعة أو قنديل أو ساهرة. كانت تخترق المكان بعينيها وتدخل عالمها السري، تَتَفَتَّقُ سُحُبٌ من المسْكِ والكافور بين حاجبيها وانحناءة جسدها المضمخ برائحة أَعشاب البراري. كان يستهويها السهر، وفي الصباح تخرج فاتحةً للناس كَفَّيْهَا البيضاوين، ولكنها ماتت، قتلوها.

دمعة أو ضحكة.

تتحرك الأزمنة في مكان وقوفه وهو هنا على حافة النار أو الجرح، يسمع الخطى من زمانها تأتي ثُمَّ تعبر. يمر الشبح وخلفه

شبح آخر. تتشكل الأشباح حكايات ليلية تنفلت من زمنها وتأتي. يأتي الإسكافي بحكايته في مشغل الخِرَازَة نحو الظلام والمرأة وصراخ الأولاد، وفي يده سَمَكَةٌ نهرية يشتهي أكلها مقلية. يأتي السارق بالحبال كي يَمُدُّهَا من السطيحة العارية إلى وسط الدار، ثم يقفز، ويَشْهَرُ السكين، ويكتشف مَخْبَأَ الحزام الذهبي والأساور وصندوق المال. يأتي الملك حافيا بثياب مُتَسَوِّل ليسمع حكاية الليل، ولكنه لا يعرف كيف يُرْسِلُ المُتَسَوِّلينَ غناءهم وحكاياتهم في آخر الليل، ويظل الملك متسولا صَامِتاً يلتقي في الدرب مع متسولين آخرين ينظرون إليه باستغراب، هم يغنون ويرددون حكاياتهم وهو لا يغني، ولا يعرف شيئا يحكيه، لا صوت له. أصواتهم ترقق القلوب وسكان الدرب يخرجون لهم الطعام. يأتي التاجر رَافلاً في ثياب الحرير، مشغولا بأخبار الربح والخسارة، يحلم بجارية الغد الرشيقة القد، اللَّيِّنَة المَلْمَس. سيشتريها، يقول، صلى صلاة العشاء واستخار الله وعقله ليس معه، يقول نسي الأخبار والجارية في لحم وشحم زوجته وفي عينيها المُرْعِبَتَيْنِ في الظلام. يأتي المؤذن بتَرَاتيله التي ينطق حروف كلماتها مكسورة، وأحيانا يَغْرقُ الصوتُ في داخله أو يَنْتَصِرَ عليه ويُصْعِدُهُ من جوفه ليدفع به نحو الانكسار، والأسوار تردده في امتداد نحو التلاشي التدريجي. يأتي جُنْدُ السلطان بسراويلهم الفضفاضة الحمراء، والرماح في الأيدي. كلهم يأتون. يضحك الملك ويبكي الإسكافي. يُحَشْرِجُ المؤذن ويتصاعد شخير التاجر المزعج للمرأة التي تنام بجانبيه. يَنطُّ السارق سريعا خفيفا بالرغم من أن يديه مُثْقَلَتَيْنِ بالجواهر والذهب. كلهم ينسحبون. يأتون بالحكايات وينسحبون، وقد أحْنَوْا رؤوسهم تحت سَقَائف الدّرب الواطئة. يختفون في الظلام ويُوَهِّجُونَ نور أعينهم كي يَرَوْا طريق العودة إلى الزمان والمكان اللذين جَاؤُوا منهما، أشباحاً ليليةً تَغْمُرُ هذا المكان بِسِرِّهَا الخاص.

قال رأيت،

وهَمَى بعَيْنَيْه يَحْضُنُ بهما المدينةَ التي لم تتـهدم بعد. قال رأيتُ شُبَّاكاً يُفـتح ثم يُغلق ولم أر وجهـها المُطِلّ. قال ستأتي مع الحكايات، وسيكون إطلالها من الشبـاك آخر حكاية قبل أن تَتَهَدَّمَ المدينة وتَنْهَارَ الأســوار والبيـوت المتـداعـمـة والـصـوامع والأبراج ويمحو الزلزال المدينة أو يَدُكُّهَا الإعصار.

كـان مذهولا بطول جسده الـذي يتسـامق، بالحكايات التي تأتي إليه من أزمنة تتـقاطع وتمتزج في زمن واحد. ظـل واقفا في مكانه في الدرب، يغالب الضحكة أو الدمعة، وكأنه ينتظر أو يستحضر. هو ذاك الوجـه القمريُّ والمنديل الرُّمَّانِيّ، والسهر على ضوء ساهرة أو شـمعة أو قنديل، والكَفَّانِ البيـضاوان، والكلمات التي لا تُنسى أبدا، والتي لم يكتبها كتـاب ولا أنشدتها الأناشيد. هي تلـك، المَوْعُودَةُ بكل هذا المطـر وبكل هذا الليل، وبأشـيــاء أخرى سوف تأتي مع الزمن.

غـادر مكانه ورحل بعينيه، يمتد في طوله الـسامق حتى يتـجـاوز الـزمـان والمكان وأعـالي الأسـوار والـصـوامع والأبراج، ويستطيع مـن مكان رؤيتـه أن يرحل، ولكن رحـلتـه كـانت إلى نفس هذا المكان، حيث ذلك الشباك الذي لا يختلف في شيء عن باقي الشبابيك الأخرى.

الرحلة،

آه، نعم، الرحيـل إلى عالم البدء، قبل أن تكون كل هذه الأشياء، هكذا رحلتْ، وفي عينـيها لمعانُ حَدِّ السكين الذي تمت به الطعنة، وها أنا أرحل بعيني، وأرى أناسا يعبرون الطريق واحدا بعـد الآخر، جـماعـة، امرأة ورجـالا، إيماءة يد، صرخـة، دمعـة، تَرَاتيل للآيات البينات، شتـائم، ضحكا أخـرس مسكونا بالجنون، أطفالا ودَوَابّاً وبَدْواً وعربا وبربرا ونصـارى، صيفا وشتاءا، عـبيدا وصناعـا وحـرفـيين، وَهَجـاً كاذبا فـي النار التي وَمَضَتْ في هذا

الليل، مرشدين للسياح وقد ضلوا طريقهم في الحياة، حفارين للقبور، أنصافَ أحياءٍ وأنصافَ أموات، نساءا كسولاوات لا يبرحن أسِرَّةَ الدَّعَةِ والصوف والحرير، موتى لم تبق منهم سوى العظام، كل هؤلاء وغيرهم يعبرون الطريق، يصعدون هابطين ويهبطون صاعدين، يَلُمُّ شَتَاتَهُمْ هذا الطريق، والليل يختلط بالنهار، ثم ماذا ؟ لا شيء بعد ذلك، لا شيء بعد فاطمة الزهراء التي اغتالتها الطعنة وهي تخرج في أحد صباحاتها كإشراق نهار ربيعي، لا شيء سوى المدينة التي لم تتهدم لم بعد ولم يَفْنِهَا زلزالٌ أو يَدُكُّهَا إعصار. لا شيء.

الإسكافي لا يعرف، وكذلك المَلِكُ والمُتَسَوِّلُ والتاجر والمؤذن، كلهم لا يعرفون، حتى جُنْدُ السلطان لا يعرفون، كلهم مشغولون بحكاياتهم الخاصة، والسيد لام لا يعرف . فهو يستنكر غلاء الطماطم، والسيد ميم لا يعرف لأنه يبحث عن خادمة لتساعد زوجته الموظفة في أشغال البيت، والسيدة دال، أعطت ابنتها خادمة للسيدة صاد، والسيد راء مريض بالكِلْيَتَيْنِ وهو يتذمر من الممرضين والممرضات الذين يتبادلون النزل في زوايا المستشفى، والسيدان بَاء وهَاءْ ذاهبان إلى الخمارة، والسيد تاء يتحدث عن بطالة المجازين من الكليات، والسيد نون طرد من شغله بمصنع النسيج لأنه انخرط في النقابة، والسيد فاء يشتم جريدة تنشر أخبار الكلاب الضائعة وتهتم بالدعاية للكوكا كولا بينما لم تنشر خبر حريق شب في أحد الأحياء القصديرية، والسادة ميم وباء وراء يتحدثون عن مسلسل تلفزيوني أثار دموعهم فبكوا، والسيدة سين لم تَكْفِهَا النقود لشراء الزيت والخضر والدقيق، وهي مشغولة بالطرح و[illegible]مع وعَدِّ ما في يدها من نقود، والسيد هاء يبيع أوراق اليانصيب، والسيد باء والسيدة نون يتلامسان وسط الزحام بلذة وسرِّيَّة بالرغم من أنهما لم يتعارفا من قبل، والسيد كاف يَتَسَوَّلُ بِحَكْيِ قصة سيدنا ابراهيم

وولده إسماعيل ولا أحد يستمع إليه، والسيد لام يتباهى بليلة العُرْي التي سهرها البارحة، ويتحدث للسيد ياء عن الويسكي الذي ذاقه لأول مرة من بقايا الأكواب، ثم يفتح علبة البلاستيك لِيُطْلِعَ السيد ياء عن بقايا الدجاج واللحم التي وُهِبَتْ له بعد أن أنهى عمله كنادل في السهرة يقدم للمدعوين الشراب والطعام، والسادة، والسادة، والسادة... كلهم لا يعرفون أنها ماتت مقتولة، وأن منديلها الرُّمَّانِيَّ لم يدفن معها، وأن سهرتها لم تكتمل، وأن شُبَّاكَ بيتها لم يفتح بعد، وأن حزامها، بكل الألوان السبعة يبدو من حين لآخر في السماء، وأن عينيها في البحر وقوادمها النَّسْرِيَّةَ تَنْتَشِرُ فوق قمة أحد الجبال.

يندفع محمد الواقف بجسده نحو الجهات، يرى وجه المدينة المثقل برائحة المطر والتراب والأشجار التي لا تثمر. ينظر إلى وجوه كل أولئك الناس الذين مروا، وإلى تلك الأشياء التي عبرت معهم. كلهم أغلقوا الحوانيت والمشاغل، والمَلِكُ نَزَلَ عن العرش، والمؤذن ختم آذانه بحَشْرَجَةٍ ما تزال عالقة بالآذان، والسارق خَفَّ إلى حباله يَطْوِيهَا على الذراع استعدادا للقفز من السطوح واستخدامها عند الصعود، والتاجر انقلب على جنبه الآخر وشخيره يَقُضّ مضجع المرأة النائمة إلى جواره، والضحك الذي جلجل في المقهى عاد صمتا بعد أن جمعت أوراق النَّرْدِ وصُفَّتِ الكراسي مقلوبةً بعضها على بعض، والمطر اختلط بالمطر، والصمت امتزج بالصمت، كل هذا والمدينة لم يَهُدَّهَا زلزالٌ ولم يَدُكَّهَا إعصار، والأسوار هي الأسوار.

قال محمد الواقف،

هذا الليل لي، وانحنى من شموخه يرى نجمته بادية وراء الأسوار، ويرى الوجوه النسائية تفتح كل الشبابيك، تطل منها جميعا، وجوه قمرية ورؤوس مَلْفُوفَةٌ بمناديل رُمَّانِيَّةِ اللون، والأَكُفُّ البيضاء مكشوفة لكل من يريد أن يراها.

شخصية واحدة

تبحث

عن أكثر من مؤلف

لأنّ رضوان قد قال.
يقول رضوان.
في المساء سيحدثنا رضوان.
قال لنا رضوان في هذا الصباح.
قل يا رضوان.
والآن ما الذي سيقول رضوان ؟
قل لنا يا رضوان ما كنت قد قلته في ذلك النهار.
قالها رضوان.
رضوان هو الذي كان قد قال.
اسمعوا الآن ما سيقوله رضوان.

هذا هو اللغط اليومي الذي يحضر فيه رضوان حتى وهو غائب. ضجة دائمة. صراخ. ضحكات. عيون تترصد العابرين أمام المقهى أو في عرض الشارع. وقد قال لي رضوان ما كان قد قاله للصحاب، وقلت أنا ما قاله لي رضوان للمراكشي والطائع حينما جاء الجلسة ذاك المساء. ثم حينما جاء عبد الرحيم الغزال والأزرق قلنا لهما ما كان قد قاله رضوان. وعبد الرحيم الغزال قال نفس كلام رضوان لأناس آخرين من مَقَاهٍ أخرى. وكأنهم عشائر أخرى أو قبائل، فجاؤوا يقولون لنا كلام رضوان وكأننا لا نعرف، وكأنهم راغبون في الانتماء إلى عشيرة رضوان، في مقهى « الصباح والمساء » هذا، المعروف في المدينة.

وحين أردتُ أن أُحَدِّثَ امرأتي عن بعض ما يدور بين الصحاب في المقهى وجدت كلمات رضوان تَنْفَلِتُ على طرف لساني وأنا أقول لها قال رضوان وهي تقول لي من هو رضوان وأنا أقول لها ألا تعرفين من هو رضوان ؟

كان قد قال ذلك الكلام وهو يضحك وأنا لم أضحك. ثم بعد زمن من ذلك الوقت أخذت أتأمل ما قال، وأنا أفكر في أن ذلك يحتاج إلى دهر من استجماع قوة العقل لإدراك كل

المعاني التي ينطوي عليها ذلك الكلام الذي كان قد قاله وهو يضحك.

أستطيع الآن أن أعُدَّ شعيرات رأسه القليلة، المُنْسَدِلَة على جانبي الرأس. صَلْعَتُهُ الواسعة تُبْرِزُ ذلك السَّالفَ الخَفيفَ الشَّعر. كما أستطيع أن أعُدَّ مَسَامَّ ظاهر يديه، وكل التجاعيد التي تبدو على الجبين. ظريف وغير مُعَذِّب كالأصدقاء الآخرين، بعضهم نَمَّامُونَ ينهشون لحم الإنسان حيا وهو غائب، وبعضهم مجاملون إلى حد أن يفقدوا شخصيتهم واختياراتهم ومواقفهم، فضوليون يَدُسُّونَ أنوفهم في روائح الجسد وفي خبايا النفس، ثَرْثَارُون، أنانيون، مُنْطَوُونَ بائسون إذا ما تكلموا تحدثوا عن أشياء تبدو سخيفة فلا يبقى ثمة شيء يقال، منشغلون بالترقيات والسلاليم والدرجات، أو بالبناء وأسعار الإسمنت، ضَحَّاكُونَ بفُجُورٍ نسائي، مصابون بالاكتئاب، بُخَلاَءُ يصطادون من يؤدي عليهم ثمن القهوة، ومع كل هذا يلتقون جميعا في المقهى، ينشرون عاهاتهم على بعضهم وعلى كل ذي عاهة يريد أن يتفرج على العاهات، ونقيق الضفادع لا يهدأ، والنادل يُوَزِّعُ المشروبات، وبعضهم يذهبون والآخرون يأتون، وليس ثمة سوى نقيق الضفادع.

حين يسمونه " الفيلسوف "، فأنا أحس بالمرارة. أعرف ما يعنيه مَكْرُهُمْ بهذه التسمية، وهم لا يَذْكُرُونَهَا في حضوره، كما لا يذكرون اللقب في حضور من يطلقونه عليه، فالواحد منهم " شَمُّ النسيم " لِزَهْوِهِ وعينه الخضراء المُولَعَة برؤية النساء، والآخر " العسكري " لطول قامته وصلفه، والآخر " شَابَ قَرْنَاهَا " لما ظهر على مفرقيه من شيب، والآخر " فاتن حمامة " التي تُختصر إلى فاتن، لِرَخَاوَتِهِ وافْتِتَانِه بنفسه، وألقاب أخرى يستمدونها من الطبيعة والخضر والمسلسلات التلفزيونية والعادات والأعياد والبيع والشراء والنكتة والكتب ومن أشياء أخرى.

والواحد منهم يفرح إذا ما كان لقبه خاليا من الإذاية، ويغضب ويحتج في أول الأمر، إذا ما كان اللقب مؤذيا، ويحاول أن يدفعهم إلى الكَفِّ عن تَدَاوُلِ اللقب برشوة صغيرة، ثم يصبح اللَّقَبُ مألوفا. وهم يعملون عادة ألا يكتشف الواحد منهم لقبه إذا ما كان مُغيظاً له، يتآمرون على ذلك بالغمز واللمز والهمس والضحكات التي تحمل معنى خاصا.

مع أنني لم أكن أعرف بماذا ينادونني في غيابي، فلا شك أنهم قد تَوَاطَأُوا على لقب ما. وحين كنتُ أذكر لزوجتي بعض ألقابهم كان الفضول يَسْتَبِدُّ بها وتطلب مني أن أحاول أن أعرف، حتى تعرف صورتي عند الآخرين. وكيف أعرف وهم لا ينادون أحدا بلقبه إلا وهو غائب ؟

الفيلسوف سيأتي.

ها هو آت.

جاء الفيلسوف.

وهو فعلا فيلسوف، فكلماته تحتاج إلى دهر من استجماع قوة العقل لإدراك مراميها البعيدة، وغالبا ما كنت لا أفهم معانيها إلاَّ بعد استجماعِ لِشَتَاتِ بعض الأفكار. كان يقول ذلك الكلام وهو يضحك، كأنَه يلقي نكتة أو يُعَرِّضُ بحادثة أو يَمْرَحُ ويُريدُ أن يُشيعَ المرح في الجلسة بين الصحاب.

(وأنا أريد أن أُشيِّعَ الفرح بين الصحاب. ولم لا ؟ أليس من حق الإنسان أن يضحك في هذا الزمن القاسي ؟ أعرف أنهم زنادقة، يضحكون على الضحكِ وعلى ضحكِ الضحكِ وعلى الضَّاحكِ والمُضْحك، ولكن ذلكَ لا ضرر فيه، فالمقهى هو المقهى، وَمن كانَ ضَيِّقَ الصدر فليبحث لنفسه عن مكان آخر. أعرف أنني ضاحك ومُضْحِك، ولا أستطيع أن أكون شيئا آخر غير ما أنا، وهؤلاء هم الصحاب).

صحاب وأي صحاب !

أهذا هو رضوان ؟

هذا هو بيتـه. الباب مـفتوح ويمكـن لأي أحد أن يدخل، صـحـاب أو لصـوص أو مـخطئـون في العنـوان، أو حـتى بعض الفضوليين. أوَ لاَ يخافُ اللصوص ؟ أم أنه رجل بغير أسرار ؟ لماذا لا يغلق رضوان باب بيتـه كباقي عباد الله ؟ لعـله جنون الفلسفة. لعلها الحكمة التي لا يدركها الآخرون.

(وأنا رضوان. من عـادتي ألاّ أغْلقَ الباب إذا مـا خرجت إلى الشـغل أو السـوق أو إلى الشـارع أو المقـهى. الضـيـف من يستضيف نفسه في بيتي حتى وأنا غائب. والصديق صديق سواء وجدني في البيت أو لم يجدني فيه. اللصوص لا يسرقون الكتب والجرائد والأثاث الرخيص، وإذا ما كان هـناك سارق لكتاب فهو كسارق النار. أما الفـضوليون فما شأني أنا بالفـضول ؟ الفضولي من يتدخل في الفضول، ومن الفـضول ان نَنْشَغِلَ بالفضول، وإذا مـا كـان هنالك شيء من مَسْحُوقِ القـهوة وبـعض قطع السكر، وأراد أحد أن يُحَضِّرَ لنفـسه قهوة فلا بأس. عـادة إغلاق الأبواب عادة سيئة، وغيـر حضارية، فلو كـانت كل الأبواب مفتـوحة لما احـتـجنا إلى المفـاتيح، ولَعَوَّضْنَاهَا بمـفـاتيح الأفكار، ومـفـاتيح النصوص، ومفاتيح النفس، ومفاتيحَ أخـرى لا نحتاج إلى وضعها في الجيب أو تعليقـهـا على الخاصـرة وكـأننا سَجَّانين. ساعـتهـا سـوف لـن تغـدو الدواليب والأدراج والخـزائن مكانا لـلأسـرار، وسيحـتفظ كل واحد منا بأسراره فـي قرارة النفس فلا يكتشـفها أحـد إلا من كان طبـيبـا مداويا. البـابليون كـانوا يتركـون أبواب البيوت والمتاجر والمعابد مفتوحة، حتى لا يغلقوا أي باب في وجه أحد. والـنصارى يُصَمِّمُونَ حدائـق المدن بغيـر أبواب أو أسيـجة حتى لا تـوحي بالحصـار والعزلة وحـدود المكان. افتـراض وجود اللصوص وقطاع الطرق والمغتصبين قبل أن يوجدوا فكرة همجية تساعـد بالفعل على ظهـورهم، وإغلاق الأبواب يغـري عادة بأن

يحاول الإنسان اكتشاف ما يوجد في الداخل.).

- رضوان !

ترددت قليلا وأنا أنطق بالإسم، فقد أردت أن أعرف هل هو موجود بالبيت أم أنه يوجد بالخارج. تقدمت خطوات وأنا أردد :

- رضوان !

الكتب والجرائد وبعض الأوراق المخطوطة على إحدى الطاولتين الظاهرتين في صدر الغرفة، وعلى الأخرى بقايا طعام وبعض الفناجين التي تَخَثَّرَتْ في قيعانها القهوة. الفراش في الزاوية، ورُفُوفُ الكتب تغطي الجدران.

- أنيس. بْس بْس بْسْ.

لم يأت القط أنيس. يبدو البيت وكأنه مهجور، وقد تأكد لي هذا الانطباع حين حاولت أن أجلس على كرسي فلاحظت أن الغبار يُغَطِّيه، ثم أردت أن أشغل جهاز الموسيقى فلم يصدر عنه أي صوت، ربما لأن تيار الكهرباء مقطوع أو لانقطاع في الأسلاك أو خلل في الجهاز. الأوراق المخطوطة لم أحاول أن أقرأ ما فيها، لكنني لاحظتُ كثيرا من الشطب والتهميش. أوراق كثيرة مبعثرة، بعضها من الدفاتر المدرسية، وبعضها من أوراق الآلة الكاتبة، وبعضها من الأوراق الرسمية ذات المربعات الصغيرة، والخطوط تارة صغيرة وتارة كبيرة، مرة بالقلم الأحمر وأخرى بأقلام سوداء أو زرقاء، والتشطيب هو ما يغلب على ما يتبقى من الكتابة.

سمعت الوشوشة الخفيفة تأتي من زاوية الغرفة وانتبهت إلى طائر غريب مُعَلَّقٍ داخل قارورة. لم يكن الطائر موجودا داخل قفص من خشب أو نحاس أو أي شيء آخر. لم يكن القفص واحدا من أشكال الأقفاص المعرفة، فهو قارورة من زجاج أزرق، ضيقة من الأعلى ومن الأسفل، مع انْبِعَاجٍ في القُطْرِ يمتد

داخله قضيب نحيل يقف عليه الطائر، والقارورة تتصل بخيط غليظ أحمر مفتول ذي عقد تتدرج من الكبر إلى الصغر، والخيط ينتهي إلى مسمار حديدي ثقيل يَغُورُ جُزْءٌ منه في الحائط، وطَرَفُ الخيط الآخر يحيط بعنق القارورة. لم يكن ثمة أي طعام أو شراب، مما جعلني أتصور لأول وهلة أن الطائر مجرد دمية، وأن ما أراه لا يعدو أن يكون نوعا من الأشكال التزيينية الرخيصة التي توجد منها ملايين النسخ، لولا أن سمعت الوشوشة الخفيفة ورأيت الطائر يحرك جناحيه تحريكا هادئا.

أي قفص هذا ؟

عينا الطائر ضيقتان وهو ينظر ولا يتحرك إلا حركة خفيفة تكاد تكون غير مرئية. يبدو متناوما، شبه ميت، لولا أنه يرفع أحد جناحيه من حين لآخر رَفْعاً خفيفا متثاقلا ثم يَخْفِضُهُ في هُدُوء.

رأيت الريش منفوشا منتفخا كما تكون الدجاجة الحاضنة، أو الطائر المريض، المقبل على الموت، لولا أن الريشات كانت ذات بريق، تبدو لامعة وكأنها قد طُلِيَتْ بشيء من المواد البراقة التي تُستعمل لتلميع الشعر. بدا منقاره صغيرا أصفر، وعيناه سابحتان في الفراغ، دون أن تنظرا إلي. كانتا تنظران إلى مكان بعيد مجهول.

كيف دخل هذا الطائر القارورة ؟ هل فقست بيضته داخلها ؟ هل صنعوا القنينة من حواليه لتطوق جسده بزجاجها الأزرق الشفاف البارد ؟ هل رضوان هو من فعل هذا، أم أنه قد اشتراه على هذه الحال ؟

وقفت وسط الغرفة حائرا، دون أن أقترب من الطائر. أهذا هو رضوان ؟

طائرٌ مَعْصُوبُ العينين، محاصر بزجاج ثقيل أزرق. لا يأكل ولا يشرب. لا يطير ولا يتنفس نسمة هواء. لا يغني ولا يبكي، ولا يدري أهو حي أم ميت. أهذا أنا، أم هو رضوان، أم

أنه كل صحاب المقهى حتى وإن اختلفت الألقاب والأمزجة والطباع ؟ أهو نحن ؟ أولائك ؟ ربما.

حين سمعت الطقطقة، خرجت من أفكاري وانشددت إلى القارورة، فقد كان الطائر يتمدد، ويضغط بصدره على جدار القارورة. تتسع عيناه، يكبر صدره حتى يملأ كل فراغ القارورة، ولعله كان يضغط بقوة انتحارية يموت خلالها أو يهشم القارورة ويطير بعيدا. كان يحاول. عضلاته تتمدد، وعيناه تتسعان، وقد انْضَغَطَ رأسه في الجسد حتى يعطيه قوة أكبر، وارتفع ساقاه نحو الكَلْكَلِ تدفعان بقوة، حتى رأيت زجاج القارورة يتهشم، والطائر يَنطُّ من وسط الشظايا التي تهاوت على الأرض ويخرج من الباب المفتوح.

لم يبق سوى المسمار، والخيط الأحمر المُتَدلِّي، وعُنُقُ القارورة.

أهذا هو رضوان ؟

يشع كلامه في كل مكان، في جلسة المقهى وفي لقاء الشارع العابر، في الاجتماع، والزيارات العائلية، والسهر، وعند باب البقال أو الجزار، في الساحة، وبين سطور الجريدة أو الكتاب، في ساعة التعليق على الأخبار، بين الأكل وشرب القهوة والطريق إلى الشغل وفي كل مكان آخر يمكن أن يوجد فيه رضوان، فهو الذي قال، وهو من جاء إلى المقهى ليقول.

كان يجلس معنا في المقهى وكأنه في زيارة عائلية، أو كأنه في اجتماع سري، لا فرق. تواتيه اللحظة فتلتمع عيناه ويَرِقُّ صوته، فكأن مُذَاباً من الضوء سوف يترقرق مع الكلمات ويتسرب إلى النفس كي يشع فيها بهجة الإدراك. كلماته كالأقمار المعلقة في سمائنا الصغيرة، لا يراها أحد ممن يسخرون منه ويسمونه " الفيلسوف " ولقد كنت واحدا ممن يَسْتَنِيرُونَ بتلك الأقمار في ظلماء بعض الليالي. هو يضحك وهم

يضحكون وأنا لا أضحك. أعرف أن ضحكهم ساخر ومجامل، من خلاله يزجون بعض الوقت، في مثل الساعة من كل يوم، وكأن رضوانا لم يأت إلا لكي يجعلهم ينفجرون من الضحك وحتى دون أن يسمعوا ما قال، ودون أن تهبط كلماته إلى قرارة النفس كي تضيء بعض أوقات الظلام، ومن غير أن يحسوا مرارة ذلك القول وعُنْفَهُ وما ينطوي عليه من خبايا ومصائب. ولعله كان يضحك لضحكهم، أو أن من عادته في الحديث أن يلقي الكلام وهو ضاحك، يتكلم ويضحك ليضحك الآخرين، إن كان لا يضحك عليهم كما يضحكون عليه.

(أنا ؟ كلماتي أنا ؟ لا ينبغي تصديق كل ما يقال. كل واحد منا يفكر في الآخرين بطريقته الخاصة. في بعض الأوقات يصير الآخرون هم الجحيم، وفي أوقات أخرى يصبحون نعيما وبهجة وإغراءا بالحياة. لا أحد يضحك علي وأنا لا اضحك على أحد. كل الناس يأتون إلى المقهى لتبادل الأخبار، والتنفيس عن النفس، والضحك، وشرب القهوة الخالصة أو الممزوجة بالحليب، ولعل ذلك السيد لم يكن يتكلم عن مقهى محطة القطار، أو مقهى المطار، أو مقهى المحطة الطرقية، كمقاه للغرباء والعابرين، فقد استهوته مقهى « الصباح والمساء » كما استهوتني، وإن كنت في أوقات كثيرة أذهب إلى مقهى « نهار وليل »، أو إلى مقهى المحطة الطرقية، بالرغم أني لست مسافرا، حسب الأحوال. أذهب إلى المقهى برغابي وأحزاني كما يفعل كل الناس، بضحكاتي المكتومة، ووساوسي، وبعض الجرائد. ربما لقضاء الوقت الذي لا أجد ما أفعل فيه في البيت. ومجتمعات المقاهي لها شؤون وأعراف قد لا يعرف عنها ذلك السيد الشيء الكثير، فهذا واضح من كلامه، ولعله واحد من الذين يخلصون لمقهى واحد، ولذلك تبقى نظرته محدودة، فالمقاهي وإن حاولنا أن نقول عنها الشيء الكثير تظل هي المقاهي، أمكنة صغيرة للطواف

عبر العالم، والمهم هو العالم الكبير الذي يُخْرِجُنَا من عالمنا الصغير).

هو يضحك وهم يضحكون وأنا لا أضحك. يعرف أن كاميرات التصوير التلفزيوني لم تأت لكي تلتقط صورته وهو يضحك، ويتحدث بالضحك عن الضحك، في موضوعات كارثية لها طبيعة المأساة، والضحكة تسبق كل شيء، ولعل ما بعد تلك الضحكة يصبح معروفا، تكتفي من خلاله كاميرا التلفزيون بالتلميح وتنسحب إلى مناظر خلابة تخون ما كانت قد قالته ضحكة رضوان، فالمخرج كالصحاب، لم يفهم معنى الضحكة فخلط بينها وبين ذلك الضحك الفجوري الذي يمكن أن يسمع في بعض المقاهي، يضحكه رجال نساء، أو يضحكه نساء رجال عن ضحك الرجال والنساء لا فرق. رضوان كان يريد أن يظهر من خلال الضحكة إغاظته للأعداء، أو اغتباطه بآخر ما قال، أو نبوءته ببعض مسارات الأحداث، أو نهوضه ونهوضنا من الرماد والغبار، حتى وإن كان ذلك النهوض يتم داخل نقيق الضفادع.

تظهر لي صلعته الكبيرة، والشعر المنسدل على الكتفين. أسمع الضحكة المجلجلة وصخب الحياة. لم يأت رضوان إلى البيت ولكني تخيلته قد جاء ووجدني جالسا على الكرسي، قبالة القارورة التي تهشمت فظل جزء منها معلقا في المسمار وتناثرت بعض شظاياها على الأرض. ماذا سيقول ؟ سيقول ما قال، أو ما يقوله الآن في المكان الذي يوجد فيه، وهو يضحك والصحاب يضحكون.

(الطائر حيوان طائر. كا. كا. كا. أليس هذا التعريف مضحكا ؟ لنضحك في هذه المرة مع الطيور، وكل طائر لا بد له أن يطير. هذه هي فلسفة الوقوع : الطيور على أشكالها تقع. ولقد وقع طائري في بطن القارورة. وقوع غريب ولكنه وقوع.

وأنا أردت أن أصنع فلسفة للنهوض : حالة طائري الذي كنت أعرف أنه سيتحرر ذات يوم، كما سَنَتَحَرَّرُ نحن العرب. هل أعجبتكم فلسفة النهوض أم أنكم ممن ينحازون لفلسفة الوقوع ؟ كل الطيور على أشكالها تقع. طيور الأعداء هي التي سوف تقع بعد هذا اليوم. طائري سَيُحَارِبُهَا. ربما سيصير نسرا أو عُقَاباً أو كاسرا من الكواسر.

عرفت أنه في الأيام الأخيرة قد فقد وداعته واستسلامه المهزوم. كان يَسْتَعْدِي كُلَّ قواه لأن يفعل شيئا. وها هو قد تحرر. حرر نفسه رغم حصار الزجاج السَّمِيك المحيط بجسده من كل الجهات. ولقد حدث ذلك في غيابي. لا شك أن أحدا قد دخل الغرفة وأنا غائب. عينا الغريب أيقظتا فيه الإحساس بأنه مُعَرَّضٌ للفرجة والاستغراب. العينان قالتا له «هو قال للعينين. كا. كا. كا. لماذا لا تضحكون؟ الطائر قال للعينين ما لم يقله لي، فلعله كان قد أَلِفَ نظراتي وهي تُشَجِّعُ وتُحَرِّضُ وتَتَرَقَّبُ وتنتظر. ها عنق الزجاجة. ها الشظايا. ها بعض ريشاته قد تناثرت على الأرض بعدما طار وخلفها من ورائه. لمثل هذه الأحوال أترك الباب مفتوحا، حتى يزور الزائر ويخرج الطائر. كا. كا. كا. ألا تضحكون ؟ الطائر طار وأنا سأطلب لكم نخب الطائر. ماذا تشربون ؟ اشربوا ما تريدون. كا. كا. كا.).

فكرت في أن أخبره بزيارتي لبيته وهو غائب، وأن أصف له ما قام به الطائر تحت ناظري من محاولة ناجحة للخروج من حصار القارورة الشفافة الخضراء، متوقعا أن أسمع كلاما آخر يحتاج إلى دهر من استجماع قوة العقل لكي أفهم معانيه. لكني عرفت أنه هو من سيبادرني ساعة اللقاء في المقهى بذلك الكلام، وما عليَّ سوى أن أتأهب لسماع ما سيقول.

ربما يكون الآن في ملعب الخيل، يطعم فرسه أو يركبها ويدور دورتين أو ثلاثا حول الملعب. يشرب كأسا في حانة نادي

الخيل أو يتفرج على الفرسان يمتطون خيلهم. كان يتحدث عن فرسه بكثير من الارتعاش والدهشة والفرح، وكأنه يتحدث عن معشوقة لم يصادفها في حياته، فهو أعزب، ولا علاقة له بالنساء على ما يقول. تغيب عيناه وهو يتحدث عن الفرس، وتغيم أرضية الملعب وتغيب كل الأشياء، وهذا هو رضوان.

(جنوح محموم. الفرس محمولة في الفضاء كأنها البراق. كأني في حضن معشوقة، أو كأني صرت محمولا إلى أعلى عليّين. كأنها ستقذف بي في الحمم، أو ستكتفي بالتقاء الجسدين للحظة وتحمحم حمحمتها المعرفة، ثم يتباطأ الركض حتى يصير خطوة بعدها خطوة نحو طريق العودة إلى الإصطبل. تبكي أو تفرح. ها هي الحمحمة بين الضحك والبكاء. العينان تنظران إلي بوله إذا كنت قد جئت وأطللت عليها من فتحة الإصطبل، كأنها أمي تنظر إلي وأنا عائد من سفر طويل، أو من الوحدة. تنظر وتحمحم وأنا أعود أدراجي، فلا أم ولا معشوقة ولا سقوط في الجحيم، وكل شيء صار ذكرى من الذكريات).

لعله الآن في ملعب الخيل يعيش لحظة من تلك اللحظات التي سوف تصبح ذكرى كما يقول، ولربما كان يفسر حالة الطائر، ويشرح لبعض الصحاب في النادي، المصادر الواقعية لتلك القدرة العجيبة على تفجير الزجاجة، وهو يؤكد أن ليس ثمة أية فرجة سحرية، وليست ثمة أية خوارق، وهو يضحك وهم يضحكون.

ها قد جاء رضوان إلى المقهى. هذا صباح رضوان. صباحي أنا هذا مع رضوان. وفي هذا الصباح قال لي ما قال عن تفجير الطائر للقارورة، في انتظار أن يأتي المراكشي والطائع، فيقول لهم ما قال، ليقولاه لعبد الرحيم الغزال والأزرق حينما يأتيان إلى جلسة الصباح، في مثل الوقت، ولا شك أنهما سيقولانه لأناس كثيرين يأتون إلينا في وقت آخر ليقولوا نفس

الكلام وهم يضحكون ويسألون عن رضوان.

رضوان هو رضوان.

هذا هو رضوان.

حين سألته عن القط أنيس، الذي لم يكن موجودا في البيت ساعة زيارتي المفاجئة، غامت عيناه وتنهد. البقية في حياتك قال. وأنا لم أضحك، وهو أخذ يضحك حتى دمعت عيناه.

(مات أنيس كما لم يمت أي قط، أو أن كل القطط تموت كما مات. أخذه الشبق إلى دروب الليالي السفلية، هناك، في الحي الذي أسكنه، وربما في أحياء أخرى قريبة أو بعيدة، فقد كان يعود إلى البيت ويَدْخُلُ من النّافذة أو الباب المفتوح دائما، كما تعرف، وهو جريح، وعينه يسيل منها الدم، وشعره مُفَحَّمٌ بغبار أسود لا أعرف مصدره، فلعله كان يقترب من رماد أحد الأفران، أو يدخل جنبات بعض الحرائق التي تقوده إليها حرب الليالي التي لَمْ يكن يعود منها منتصرا دائما، فأنا أعرف أنه قد حقق بعض الانتصارات حين لا يعود جريحا، ويأكل طعامه بنهم، ليسهر معي وأنا أقرأ أو أكتب. لكنني في بعض الصباحات أجده على تلك الحال. أعرف أنه قد عاد بعد أن فَرَغْتُ من السهر، وحين أحاول تضميد جُرُوحه، أو غسله بالماء الدافئ والشامبوان، ينفلت من بين يدي مبتلا بالماء والرغوة تغطي شعره ويقفز إلى الشارع. أعرف أنه مشغول بثأر، وأن ناره حارقة حتى يرد الجرح جراحا قبل أن يعود إلى البيت. كان إذا عاد جريحا لا يطيق نظراتي إليه، يخفي عينيه من عيني، وإذا لم يجد فرصة لذلك يبادر بالخروج إلى الشارع، فقد كان محاربا لا يقبل الهزيمة، ولعله كان قائدا لفريق برتبة جنرال.

الجنرال أنيس. مات الجنرال أنيس. عاد مرة إلى البيت وهو نازف، وكأنه قد بذل جهدا كبيرا في الوصول إلى البيت

حتى يتهاوى على الأرض. كان الجرح غائرا حول عينه وروحه معضوضة وعلى زغبه غبار أسود كأنه رماد أحد الأفران، أو رماد حريق شب في أحد الأماكن. كان دمه ينزف، وينز قطرة بعد قطرة، وهو ينظر حواليه. كان يرى الأعداء ويموء محاولا أن يقتحم مكانهم بالمخالب والأنياب، ويحرق فريقه على المحاولة الأخيرة.

جئت بكرسي وجلست أمامه حتى زهقت روحه. البقية في حياتك. ولقد كَفَّنْتُهُ في فوطته الخاصة التي كنت بها أُنَشِّفُ شعره بعد الاغتسال، وخرجت به إلى الأرض الخالية. كنت أُوَارِي شهيدا في التراب. أليس أنيس شهيدا ؟ كا. كا. كا. حين أردت أن أدفنه في حفرة حفرتها في تلك الأرض الخالية، جاءت قطط كأنها كل قطط الأرض، تجمعت وماءت واستدارت حول الحفرة، ثم انسحبت، وبقيت أنا وقبر الجنرال. كا. كا. كا.).

كنت أعرف أن هذا هو رضوان، وأنه قد قال، وسيأتي غدا ليقول، وهو من قال، وها نحن نسمع ما سيقول، أو لعلنا ننتظر مجيئه إلى جلسة الصحاب في المقهى ليقول وهو يضحك ضحكته المجلجلة، غير عابئ بكاميرا التلفزيون هل جاءت إلى المقهى لتنقل كلامه للنظارة أو أنها لن تأت، فقد كان يعرف أن انتقال الصور إلى مجالات أخرى يمحو الكلام بالصور، كما كان يعرف أن نقيق الضفادع هو نقيق الضفادع، سواء في جلسة المقهى، أو في السهرة، أو حتى في بعض الزيارات العائلية، أو عند باب البقال أو الجزار، أو حتى في الاجتماع، وبين سطور بعض الجرائد وبعض الكتب التي لا يقرأها إلا من باب الفضول، فنقيق الضفادع هو نقيق الضفادع.

أبيـــــــــض وأسود

فجأةً ظهر ثم اختفى.

رأيته يظهر، وأول ما رأيت هو عيناه. لم أر شيئا من ملامح الوجه أو القامة أو المشية أو اللباس، ولكني رأيت عينيه وعرفت أنه هو. العينان ناظرتان تقولان كلاما غامضا كالعتاب أو الضحكة أو التَّشَكِّي. النظرة حادة تتردد بين الدهشة والرعب ومحاولة الامتلاك. لكن النظرة هي الأخرى غابت وامَّحَى كل شيء، ولم يكن العالم أبيض كله ولا أسود كُلُّه، كان عالما بلا لون، وسط شارع طويل محفوف بالأشجار التي فَقَدَتْ زَهْوَ اخضرارها وتَشَعَّثَتْ رؤوس الأغصان. أبواب الحوانيت مصفوقة ومُغْلَقَة، وأبواب بعض العمارات ضيقة تبدو منها أدراج مُهَدَّمَةٌ وجدرانٌ وسخة ثم يستدير السلم صاعدا ولا يبدو شيء. بعض السيارات تمرق، واللالون.

عيناه، ظهرتا ككل شيء.

وأنا رأيت، كنت في لحظة الدهشة والرعب ولم أتمكن من رؤية قامته ولباسه فلم أعرف هل كان يرتدي جلبابا أو بذلة، بُلْغَةً أم حذاء. لم أنظر إلى قدميه. أحسست أن العينين هما كل شيء، وحدهما تقولان، محمولتان على جسد لا مَرْئي، تملآن كل فضاء الشارع، ولعلي قد عرفته من العينين، فقد رأيته في مرات أخرى كثيرة، وكَلَّمْتُه، ومشينا معا في الطريق، وأكلنا ونمنا معا في فراش واحد، وحكينا أحلام ليالي الشتاء المثقلة بالكوابيس لبعضنا، في صباحات كنا ندخن فيها على الريق ونشرب القهوة السوداء، وهو يستمع إلي وأنا أستمع إليه. لكن أين حدث ذلك ومتى ؟

حين اختفى، بقيتُ أبْحَثُ عن العينين وسط هذا الطريق الخالي من المارة، الذي لم يسبق لي أن قطعته من قبل، ولا أعرف إلى أين يؤدي. عند نهاية الشارع، يصير صَفّا الأشجار المتوازيان رأساً لمثلث ربما سوف أقف عليه وأنظر إلى مساحة أخرى من

الأشجار المنطفئة الخضرة، ومن الشوك والحجارة وتلال القحط، حيث تنتشر أجساد فلاحات تنحني على أحمال الحطب. أهذا هو مكاني ؟ حين فَقَدْتُ مكان الطفولة، بدأت أبحث عن مكان للموت أو الاخضرار، موت الاخضرار أو اخضرار الموت، والخطوة بعدها خطوة، ولون الخطى كَلَوْنِ الزمن، وأنا أبحث عن الرجل الذي ظهر ثم توارى.

عيناه قلت. كيف عرفت ؟ هل كان رجلا حقا ؟ عيناها ! ربما كانت العينان لامرأة، أو هما عينا المرأة. عيناي. بدأت أُبْعدُ عن تفكيري أن تكون العينان عينا قط أو سلحفاة أو عمارة أو شجرة، أو أن تكونا عينان للسماء. عينا رجل كانتا، وعين الرجل ترى الناس والأشياء بطريقة تختلف عن عين المرأة. تُرى كيف رآني، وماذا قالت العينان ؟ ولماذا ظهرت عيناه وسط هذا الشارع الطويل المشجر واختفتا كما ظهرتا فجأة ؟ هل أنا مصاب بِقُصُورٍ في النظر ؟ وإلاَّ كيف أعطي الأشياء ألوانا وردية من فراديس مجهولة، بعد أن جاء إلي العالم بالأبيض والأسود ؟ فقدت الأمان والرغبة وخلقت الألوان كي تغريني، والألوان تأتي إلى عيني من الداخل، فالعالم هكذا، هو العينان.

لم أكُنْ أتغزل في العينين، فأنا أحترق، وللعينين رائحة العشب واخضرار الوشم أو معنى الموت. هل فهمتَ ما أقول ؟ ربما سَتَفْهَمُ عندما يحضر رجال الشرطة والمحققون وكتاب المحاضر، ويأتون بالكفن، وبالجثة المنبوشة، وقد لا تفهم إذا هم لم يأتوا. ولماذا سيأتون ؟

في عصر ذلك اليوم، ظهر بجانبي فجأة كما كان قد اختفى. لقد رأيته وقد صار جسده ضئيلا أقصر مما كنت قد رأيت، حتى شعر لحيته، الناتئ كالدبابيس، ابْيَضَّ أكثر مما كان. اتسعت حدقتا عينيه حتى خِلْتُ البؤبؤين سيسقطان ويظن بعض الأطفال أنهما حَبَّتا زجاجٍ فيلعبون بهما لعبتهم المعروفة. يمسك

يدي ويمضي معي، هادئا منساقا إلى حيث نسير. إلى أين ؟ غاب الشارع المُشَجَّرُ الجانبين، ودخلنا دروبا ضيقة كثيرة المنعرجات، مسقوفة بسقائف من القصب ترسم بعض الظلال على الأرض. لم يقل لي ولم أقل له. كان ينظر إلى الظلال وبقع الضوء التي تتشكل وتتوالد دوائر وخطوطا تتقاطع وتتداخل. رأيت قامته القصيرة بجانبي، وهي تصل إلى مستوى الذراع، والملامح صارت طفولية، اختفت اللحية المُدَبَّبَةُ وغَزَا الشعر القصير الجبهة. القميص القصير الكمين. الشورت، وصندل البلاستيك الأسود. قلت هل هو الذي صار صغيرا أم أنا الذي صرت كبيرا، وهل هو الذي يمسك بيدي ويأخذني إلى النزهة كما كان يفعل وأنا صغير، أم أنا الذي يمسك بيده وأمضي به نحو مكان ما ؟ تبدلت بعض الأشياء في ذهني، وخفت أن يقنط من هذا التجوال ويطلب مني أن أعود به إلى البيت، أو أن يصيبه تعب المشي الطويل الذي لا أعرف إلى أين سينتهي.

وعيناه نسيت أن أنظر إليهما وهو بجانبي يسير. أَخَذَنَا الطريقُ المسقف بالقصب ولم أر عينيه. غامت الرؤية في عيني ولم أر عينيه.

مررنا قرب عربة المثلجات. أحسسته ينظر جهة العربة. توقفنا وطلبت له كوبا من عصير البرتقال، أمسكه بأنامله الرقيقة القرمزية، وعندما أردت أن أدفع للبائع تَعَرَّقَتْ يداه وبدت على ظاهرهما بُقَعُ الكبد الزرقاء. أمسك الكوب بيَدٍ وأَدْخَلَ الأخرى في جيب السروال الصوفي الطويل يبحث عن النقود. ناولني الكوب والمحبة تتسع في عينيه، وهو يريد أن يرى الرغبة في تناول كوب البرتقال في عيني. أعطيته الكوب فأخذه بأنامله الصغيرة القرمزية وأخذ يرشف منه ويلحس بلسانه شفتيه وهو يتلذذ. نظر إلى الكوب وإليَّ وضحك ضحكته البريئة، ثم رأيت الرأس الذي انحسر عنه الطربوش قليلا، وبعض حبات العرق تتقاطر على

الجبهة، والكوب في يدي. نظر إلي وضحك بصوته الأبح ضحكة قصيرة. كان يقول شيئا بين شفتيه، كأنه يريد أن يقول لي شيئا ثم قاله لنفسه، وظللنا نمشي.

كان العالم الملون ما يزال غائبا، ولم يكن العالم أسود كله ولا أبيض كله، حتى كوب البرتقال لم يكن لونه برتقاليا بالرغم من أن له طعم البرتقال، والطربوش لم يكن أحمر، رغم أنه طربوش، والأشياء الأخرى، العربات والمارة وواجهات المتاجر، لم تكن سوداء كلها ولا بيضاء كلها، ولم يكن لها أي لون آخر.

حين تدفق المطر فجأة، حنوت عليه وأدخلته تحت معطفي الطويل لكي لا يبتل رأسه وجسده، وسرنا متمايلين بعد أن أغلقت عليه أزرار المعطف. أخْرَجْتُهُ من داخل المعطف تحت سقيفة احتمينا بها من المطر، وسمعتُ بعض الناس يقولون رجل وابنه، أو ابن وأبوه، يضحكون لمشهد إخراج الولد من داخل المعطف وأنا أخزر نحوهم، وقد رأيته يخزر نحوهم هو الآخر، ويمسح العرق عن جبينه ويقول لي لماذا خرجت في هذا اليوم المنذر بالمطر هكذا، مرتديا الشورت والقميص القصير الكمين، أوَ ليست لك ملابس دافئة في الدار ؟

المطر الخريفي يتساقط بغزارة. أمسك بيدي بعد أن توقف المطر ومشى صامتا، ينظر إليَّ من حين لآخر بعينين طفوليتين.

ولماذا سوف يأتي البوليس والمحققون وكتاب التقارير ؟ هل هناك جريمة حدثت دون أن نعلم ؟ هل قُتل أحد ؟ هل تمت سرقة في مكان ما ؟ هل مَسَّ أحَدٌ بأمن الدولة. إذن لماذا سوف يأتي البوليس ؟ وإلى أين سوف يأتون ؟

عالمه أبيض وأسود، هو يسير فيه وأنا آخذه لا أعرف إلى أين. لم يكلمني. لم يقل أي شيء عن تعب التجوال والحرارة ومطر الخريف. يده الناعمة في يدي صارت صلبة خشنة الملمس، تضغط على يدي بقوة وأنا أحس الأصابع الصلبة تحاول أن

تشتمك بأصابعي فلا تدخل بينها. عرفت أنه يأخذني إلى حوانيت الحلوى والشوكولاط ولعب الأطفال. البائعة تزن مائة غرام من هذا الصنف ومائة أخرى من صنف آخر في ميزان صغير كأنه لعبة، والغلاف الذي يضم قطع الحلوى أنيق ومُوَشًّى بالزهور وصور الأطفال. كان يجمع تلك الأغلفة، كلما اشتريت له الحلوى من هذا المكان يأكلها ويَحْتَفظُ بالأغلفة بين دفاتره المدرسية، يفتحها من حين لآخر ويتأملها بإعجاب ونشوة. اشترى لي بندقية تطلق رصاصا من الفلّين، وطلب مني أن أؤجل تجريبها إلى حين أن نعود إلى الدار، لكنه أخذ يَطِخُّ في الفراغ، يحدث أصواتا مضحكة وكأنه يصطاد حيوانات ضارية أو يخوض حربا مع الأعداء، تتغير سحنته وهو يطخ، ومن حسن الحظ أن الطلقة كانت موصولة بخيط رقيق مع البندقية، وإلا لكان قد أضاع إحدى طلقاته، وبالرغم من أنني قد نهيته عن تجريبها هنا في الطريق فهو لم يسمع كلامي.

انتهى بنا الطريق إلى سور طويل سرنا حوله حتى وجدنا بابا مفتوحا ودخلنا. ساحة فارغة وباب على اليمين وآخر على الشمال، والباب الذي على اليمين يؤدي إلى البحيرة والغابة الصغيرة وحوض الأسماك، والباب الذي على الشمال ينتهي إلى ممر طويل يمكن الوصول منه إلى حديقة الحيوانات. وقفنا مُتَرَدِّدَيْنِ بين البَابَيْن، يده تمسك بيدي وعيناه فيهما رغبة وتطلع. قلت له من هنا. فقال من هنا، وأشار بيده نحو أحد البابين، لكن عينيه جَحَظَتَا وتَهَدَّلَتْ أحداقهما حتى خفت أن تسقطا من المحجرين، ويأتي الأطفال ليلعبوا بها لعبة حبات الزجاج المعروفة. البندقية في يده وهو فرحان. على حائط في الساحة لوحة خشبية رسمت عليها بعض الأهداف، والرُّمَاةُ يتناوبون على البنادق، ويسددون طلقاتهم. البندقية في يدي، وهو يقول لي لا بد أن تتدرب على الرماية، ولكن ليس هنا، انتظر حتى نعود إلى الدار. لكنه لم

ينتظر، فقد أخذ يطلق رصاصة الفلين وهو يصوب نحو أهداف وهمية لا يراها غيره، ثم يعيد الطلقة إلى فوهة البندقية ويرمي دون كلل، ومن غير أن يسمع كلامي.

حينما قلت له من هنا عرف أنني أريد مشاهدة القرد والأسد والزرافة، ولما اقتربنا من الشباك أدخلت يدي في جيب المعطف كي أخرج النقود لأشتري تذكرتين، لكنه سبقني إلى ذلك وأراني التذكرتين في يده، ثم أخذ يقودني نحو الممر المسور الذي ينتهي إلى أقفاص الأسود والثعالب والدببة، لكن يده ظلت صغيرة ناعمة في يدي وأنا أقوده نحو الممر. قال لي ها هي الذئاب، وقلت له تعال نشاهد الأسود والدببة.

خرجنا من الحديقة ورجل المعطف والطربوش يسير بجانبي، والسور الطويل الذي يحيط بالحديقة لا ينتهي، نسير بجانبه وهو لا يوصلنا إلى مكان آخر. نسير ولا نصل. كلما مشينا طويلا إلا ونجد أنفسنا ما نَزَال نسير بجوار السور. كَلَّتْ أقدامنا من المشي والسور كأنه يسير معنا، لا يؤدي إلى أي مكان آخر. نظرت إلى عينيه فرأيت فيهما بعض القلق، ولقد بقينا نسير، والسور بجوارنا ونحن بجواره، كَلَّتْ أقدامنا ونحن نسير، ثم داهمنا المطر، فأخفيته تحت معطفي دون أن نجد سقيفة نحتمي بها، فتوقفنا عن السير وبقينا هناك، إلى أن رأينا ضوءا من الكشاف يتسلط علينا، ولقد بَدَأ فَتْحُ أزرار المعطف، بأيدٍ خشنة هي أيدي البوليس. برقت بعض بَوَارِق آلة التصوير. حين تم إخراج الولد من تحت المعطف، ظهرت معه البندقية، وقد أُعْشَتْ أعيننَا بوارق آلات التصوير التي لم تَكُفَّ عن البرق، والبندقية في يدي، وهو يرفع يديه مستسلما ولا يجد ما يقول. بدأ التحقيق في عين المكان، هم يسألون وأنا لا أجيب، ثم اختفى فجأة كما ظهر، وبقيت وحدي أكشف لهم عن بندقية اللعب وهم لا يصدقون ويقولون لا بد من المحضر، ومن الاعتقال الاحتياطي،

وكلمات أخرى لم أفهم منها شيئا. ولكنهم اختفوا فجأة، وأخذت أسير مع ذلك السور الذي لا يوصل إلى شيء. أنا أسير وهو يسير، حتى كَلَّتْ قدماي وبدأتُ أضطرب في مشيي، والعالم يبدو لي ليس أسود كله ولا أبيض كله، وأنا أقاوم وأسير لعلي أصل، دون أن أصل إلى أي مكان آخر، أمشي وأمشي والسور يسير معي، وكأنني أبقى في نفس المكان، أقاوم حتى أخرج من هذه المتاهة دون أدنى تقدم نحو الخروج من متاهة هذا السور، والبندقية أخذها البوليس، فلم أجد شيئا ألهو به في هذا المكان الموحش، الشديد الظلام، والرجل الذي كان معي راح، اختفى كما ظهر، والمطر الخريفي ينذر بالسقوط مرة أخرى، فقد ظهرت في السماء بعض الرعود، والحلوى الموضوعة في أغلفة مزركشة لم تعد في جيبي، حتى سمعت صوت ذلك الرجل، صوت خشن يتكلم من تحت السور، ويقول لي لن تستطيع أن تهرب، فأنت هنا تحت الحراسة، ولن تفلت من يدي. ومع ذلك بقيت أسير، والسور يسير، أنا أسير وهو يسير، دون أن أصل إلى أي مكان.


الممازحة

لم أكن أستطيع تحديد موقع المكان الذي يوجد فيه. هل هو الآن في إحدى الحانات يرقب من خلال الزجاج تساقط الرذاذ الخفيف ؟ أم أنه في الصحراء، أو في أحد المناجم ؟ ولعله يرعى الماعز في الجبل.

كان دمي.

وبالرغم من أنني لم أقتله بعد، فهو ما يزال في مكان مُسْتَعْصٍ على التحديد، أنا أتحدث عنه بِلُغَة أولائك الأجداد الأوائل، وهو يظل يلاحقني في كل ساعات النهار، في عرق الصيف، وحتى في أوقات خمود نار الذاكرة. تأتي صورته وتقول لي حضورها بتحد وهي تنزل بي إلى وديان سفلية تغزوها النيران وأشباح الغيلان من كل الجهات. حينما تحضر صورة تلك الزرقاء العينين، الصفراء الشعر، أعرف أنها بَعْضٌ من صورته، وأنه يوجد في مكان قريب منها، أشحذ سكيني، لكن الطعنة تتم في الفراغ، فراغي أنا، هذا الذي أنا فيه، وغالبا ما ترتد الطعنة إلي.

□ □ □

كنت أباعد بيني وبين كل هذا. أحاول أن أنسى، وألا أعطي لتلك الممازحة العنيفة، الدموية، كل لحظات الرعب التي تجعلني أرى موتي. كان يباغتني في صباحات تشبه الموت، بعد أن هَدَّ كتفيَّ ما حملته من أَثْقَالِ الشاحنة إلى المخزن. يأتي فجأة ويخنق أنفاسي، يجعلني أرى كل شيء أحمر، وفي تلك اللحظة الأخيرة، قبل أن يهمد الجسد، يُرْخِي عَضَلَ زنده المشدود على عنقي ويضحك ضحكته المجلجلة وكأنه أحد الأبطال. لم يكن يصارع غولا أو وحشا، بل كان يصارع رجلا في الستين.

صباحات الموت أخذت تتكاثر، وقليلة هي المرات التي نجحت في أن أباغته فيها، عملا بِمَبْدَأ : أهجم قبل أن تُضْطَرَّ إلى أن تدافع، فقد كان عنقه يفلت مما بين زندي وساعدي ويتراجع قليلا إلى الوراء، استعدادا للهجوم. كان وثوقه من نفسه يذهلني،

ولقد جعلني بمباغتاته أشرب المرار، فلم أعد أفكر في كتابة الرسائل إلى الأهل، أو في جمع المال، لا شيء يشغلني سوى تلك الصباحات التي تشبه الموت، حيث تبدأ الممازحة.

□ □ □

لا بد لي أن أراها. حاولتُ ألاَّ أراها فلم أستطع. هي اقتربت. ظننت أنها سوف تغريني بالسكوت، ولربما تجعلني أهيئ لها كأسا من الشاي ولو بدون نعناع، أو أقدم لها زجاجة بيرة باردة، ولربما يشربان الشاي ويضحكان قليلا ويجعلانني أضحك وأنسى تَعَفُّنَ الدم. حينما رأيتها أشَحْتُ بوجهي وابتعدت. مشيتُ فوق القناطر وحيدا أحمل معي الصور وأستعيد بعض الذكريات التي غدت موجعة أكثر من أي وقت آخر. لم أر ماء النهر. لم أنتبه إلى وجود الماء تحت القنطرة وأنا أسير، فقد كنت أمشي كالمأخوذ وأرى دم القبيلة المهدور. كم من امرأة ذُبحَت. النساء اللواتي تم ذبحهن كثيرات. لا يمكن أن أُحْصِيَ العدد أو أتذكر الأسماء. الرجل يأخذ المرأة إلى مكان قصي. يغيب بعض الوقت عنها وعينه عليها حتى لا تهرب، ثم يعود بالسكين المَحْمِيَّة في النار. يُظْهِرُ أمام عينيها حَدَّ السكين ورَأْسَهَا الأسودَ المَحْمِيَّ في النار. الرجل يُظْهِرُهُ لها، ثم يمحو كل الوشم الذي على أَرنبة الأنف أو على الجبهة أو الذقن بالكي. المرأة تصرخ صرختها الوحيدة وتَستَسْلِم، فقد عرفت ما الذي يعنيه مَحْوُ الوشم بالكيّ، كما عرفت ما ينتظرها بعد ذلك. إنْ قَسَا قَلْبُ الرجل قتلها، وإن رَقَّ اكتفى بالكي الذي يمحو آثار الوشم، ولذلك فالمرأة تصرخ صرختها الوحيدة، تكتم ألم الكي وتتوسل. ترى الإصرار في العينين وتزداد تَوَسُّلاً، لكن الرجل يزداد إصرارا، فلقد جَرَّبَ إرادته حينما استدرجها إلى طريق الجبل ولم يتراجع مع منتصف الطريق، ثم إنه لم يتراجع بعد أن حَمَى السكين في النار، فكيف يمكن أن يتراجع الآن ويكتفي بالكي الذي يمحو آثار

الوشم. مع محو الشجيرات أو بعض المسامير المقلوبة تكونُ المرأة قد فَقَدَت انتماءها إلينا، ويصبح من السهل على الرجل أن ينسى لحظات الحب وشهقات الشبق، والدموع، والأغاني، وخبز الفرن الساخن، والضحكة والحنين والإشفاق، وقد أصبح من السهل عليه أن يذبحها، وسيعرف أولادها يوم يكبرون أنها قد دُفِنَتْ بغير وَشْم.

□ □ □

اخترقني في تلك اللحظة. ظهر رأسه الكبير ورقبته الشحماء المُحْمَرَّةُ من أكل الخنزير وشرب النبيذ. قال لي لا يمكن أن نكون إلا أنا وإياك، في المخزن في ساحَة الشحن، في أي مكان آخر. أخذ يبتسم وأنا أُحَاذِرُ لحظَةَ انقضاضه علي. قال إنه لا يعرف كيف يفسر ما بيننا، هل هو العداء أو المحبة، هل هي الرغبة في الاعتداء أم أن الأمر لا يعدو مجرد ممارحة، أم أن هناك ثأرا لا بد من أخذه، وقد يكون الأمر مجرد مزاح، حتى وإن أفْضَى إلى القتل، فيبدُون أحدنا لا يمكن أن يكون الآخر، وكأننا تَلاقي الأضداد. أنتَ ضدي قال وهو يضحك، حين بحثت عن أن يكون لي ضدٌ لَمْ أجد سواك، فأنا يهودي وأنت مسلم، وأنا أكره العرب، وأنت وإن كنت بربريا فقلبك مع العرب في الحرب وفي فلسطين، وهذه الممازحة تغريني بأن أعانقك أو أهديك كل المال الذي جمعته في البنك، ولربما تُغْرِيني بالقتل، قد نصير أصدقاء وقد يقتلُ الواحد منا الآخر. لا ينبغي أن تهتم بنظرات الفضول وابتسامات التشفي من حولنا، فلقد صرتُ أحِنُّ إلى تلك اللحظة التي ألقى فيها حتفي على يدك، أما أنا فلا أستطيع، لا أستطيع أن أقتلك لأن ذلك سوف يحرمني من لذة الممارحة، لذة المخاطرة بالقتل أو الموت. لن نبدأ الآن، أقولها لك وأنا حذر من أن تفاجئني، وأعرف أنك أيضا في حالة قصوى من الحذر من أن أباغتك، سآتيك في أحد الصباحات. طاب نهارك. مشى

خطوات ثم عاد وقال لي إياك أن تختفي فجأة من هذه الأرض، فأنا وراءك أينما ذهبت، حتى وإن هاجرت إلى أرض لا إسم لها فسآتيك. لا تتركني وحيداً، فليس لي من ضدٍّ سواك، وإذا ما اختفيت فجأة فلسوف تجدني أمامك، في ذلك المكان الذي تهرب إليه. اقتلني إن استطعت، فلقد كتبتُ الوصية، وتركتُ ورقةً فيها تبرئتك من القتل. تعال أعانقك. لا تهرب مني. أنت عدوي وحبيبي. طاب نهارك.

□ □ □

في تلك النار رَمَتْني.

كانت سوف ترميه في النار أو في لُجّةِ البحر. ها قد عَرَّضَتْهُ لرياحها السبع لتقتلع عينيه وهي ترقب ذاهلةً أعضاءه تتوزع على كل الجهات. حينما جعلت دمه يَنْفُرُ من دم أبيه، كان لا بد أن يُصْبِحَ له دم المجاري، دمْ الأوحال والمذابح والمراحيض. دمٌ ليس كأي دم. دَمُ تلك الزرقاء العينين، الصفراء الشعر، الذي أنْسَانِي رصيدي في البنك، ومرور الأيام والشهور، وأولادي الآخرين الذين لا أراهم كيف يكبرون، أترك أصابعهم النحيلةَ القرمزية شبيهة بأصابع طائر، ثم أعود لأجد نفس الأصابع قد أصبحت تَنْضَمُّ إلى الكَفِّ وتُسَدِّدُ اللكمة، أصابع تختطف اللقم من الصحن، وترمي بالحجارة الطيور والأرانب. أنسى كل ذلك وأتذكر نَارَ سَلاَّم، نار تلك الزرقاء العينين، الصفراء الشعر.

ليلة فريدة ظهرت فيها النجوم فوق سماء النهر. القناطر المعلقة طريقي. كان أحد أبناء البلد قد أخذ يحصي على أصابعه عدد الصوامع التي رآها في مدينتها، حدثني مُحَمَّاد عن الشعب الطيب، وماسحي الأحذية، والأغاني والمأكولات التي تشبه ما عندنا. وسألني هل سألتها هل هي مسلمة، فقلت له وماذا يهم ذلك، ثم قال لي لماذا أمانع في زواجها من سلام، إذا كانت مسلمة، فلم أجب، تذكرت نظراتها إلى عينيه، حينما جاء بها

إليَّ في ذلك الصباح. فتح الجيرانُ نوافذهم وأخذوا يرشقون نافذتي بنظرات الفضول. كلهم أطَلّوا وتَبادَلُوا النظرات والغمزات. لم أُقَدِّمْ لهما كأس شاي أو أي شيء آخر. ظل جالسا يَتَهَشَّمُ أمامها كقارورة، وعرفتُ أنه يصير لها نَعْلاً تخطو به حيث تشاء. ظل ينتظر مني كَلِمَةَ الرضا، وحين لم يسمعها مني خرجا معا، ثم التقيت بهما في نفس ذلك المساء متعانقين في طريق القناطر، وبالرغم من أنه قد رآني فإننا لم نتكلم، ومضيت في طريقي.

لم يكن يعنيها أن تموت على طريقتنا في القتل. لا وشم على أرْنَبَةِ الأنف. لا شجيرات أسفل الشفة السفلى. لا سكين يمكن أن تمحو وَشْماً غير كائن. أين هي الدموع وأين هي الأصوات النائحة التي تخترق صمت الجبل ؟ أين أنا وأين هو سلام ؟ أين هو سلام الآن ؟

المرأة الأولى كانت سمينة بيضاء، مستديرة الوجه، شبيهة بتلك المرأة التي ظلت جالسة قبالة التلفزيون دون أن تتكلم أو يظهر عليها الشعور بالرعب. عرفت أنها ابنتها فيما بعد. طرقت الباب ففتح لي رجل في مثل سني، ذو صلعة لامعة وعينين جاحظتين تسقط منهما النظارات. ظل ينظر إليَّ مرتبكا وأنا أسأله عن سلام وهو يقول لي من هو سلام، لا أحد نعرفه اسمه سلام. تَبَرَّمَ من كلامي وحاول أو يصرفني. دفعته واقتحمت الشقة فوجدت امرأة في الخمسين جالسة قبالة التلفزيون. هي تلك ابنتها، فقد كانت بدينة مثلها. كانوا يعرفون كل شيء ولكنهم ضحكوا علي. حين كنت أبحث عن سلام في الغرف الأخرى، وفي الحمام، وأفتح الخزانة التي في الممر، لم تتحرك المرأة من مكانها، والرجل ظل ينظر إلي مشدوها ويهدد باستدعاء البوليس. لا شك أنهما قد ضحكا علي، فقد كان سلام وابنتهما مختفيين تحت السرير، وهو المكان الوحيد الذي لم يخطر على

بالي أن يختبئا فيه، هكذا أخبرني شبان الحي حينما عدت مرة أخرى، ثم أكدوا بأنهما الآن غير موجودين في البيت، وطلبوا مني أن أكُفَّ عن ملاحقتهما، فسلام شاب طيب، لا يؤذي أحدا، وهو وإن كان مُدْمِناً على الخمر فهو غير مُكْثِر، إذ لا يتجاوز زجاجتين من النبيذ كل ليلة.

اختفت من حياته تلك البدينة البيضاء. فارقها أو فارقته. أما التي في النار رمتني فلا سكين يمكن أن تمحو وشما غير كائن.

□ □ □

رأيتُ احمرار عيني. كل الدم تصاعد إلى عيني ورجلاي تخضخضان في الفراغ. ثَبَّتُّ القدم اليمنى على الأرض، ونهضت محاولاً أن أُزِيحَ الثقل عن عنقي. هويت على الأرض. كان الثقل أقوى من قدرتي على النهوض. عيناي يشتعل فيهما احمرار الدم وأنا أسمع الضحكات وكأنها تأتي من مكان بعيد. أصَبْتُ عينه اليمنى بسبابتي فسمعته يصرخ، وقوة الضغط تخف عن عنقي. تراجع قليلا وهو يسحبني معه إلى الوراء. رأيت المتفرجين يتراجعون مفسحين المجال لاتساع الحلبة. نهضت مُسْتَنِداً إلى قدمي المثبتتين في الأرض ودفعته بقوة حتى ارْتَجَّ جسده مع الحائط. خَارَ زَنْدُهُ وارتخى. فَكَكْتُ عُنُقِي مِمَّا بين الزند والساعد. رأيت عينيه. تقابلت أعيننا. أخذ يضحك. التصفيقات الحارة. الهتاف. كلهم يطلبون دعوةً إلى الحانة في المساء. مَنْ مِنَّا المنتصر ومن منا سوف يدفع ثمن النخب. جاء ينظر إلي بمحبة ويربت على كتفي. العرق يتصبب على جبينه وشعر مقدمة رأسه يتقاطر. يضحك وهو يلهث. ماذا لو قتلتني قال، كنت سَتَشُجُّ رَأْسِي مع الحائط. ورقةُ التَّبْرِئَةِ من القتل مُوَقَّعَةٌ ومُصَادَقٌ على توقيعها، وكذلك الوصية. لن تصير مليونيرا ولكن نقودي لا بأس بها. مِحْنَتِي أنا لو قتلتك، وقتها لن أجد مع من أتمازح في السجن، ولسوف يصير زندي رَخِياً غير قادر على

الضغط بقوة. اقتلني في المرة القادمة إن استطعت، أما أنا فقد تعودت أن أترك عنقك في اللحظة المناسبة.

□ □ □

أغوار العينين.

الموت في الجبل.

رأيت الغاباتِ المحروقةَ وصور الدم. جاءت إليَّ أعوام الجوع في الريف، واستيقظت بعض الأغاني المنسية. كنت أقتل صورته في اللحظة التي وجدت نفسي فيها أموت. نهضت إلى قنينة الماء المعدني وأفرغت نصفها في جوفي. ربما كان يعرف أن الحفرة تنتظره. البئر سوف تَرْدُمُهَا الحجارة. آخر شعاع ضوئي وآخر صورة. آخر كل الأشياء مع انْكِتَامِ آخر الأنفاس. ربما كان يتجاهل كل ذلك ويمضي في طريقه مَعَهَا، وهي نفس الطريق التي سوف تؤدي به إلى البئر السحيقة، بئر الظلام والديدان وآخر كل الأشياء.

لا أستطيع أن أنسى. أشتغل وأكنز بعض المال. أنام قليلا وأدخن كثيرا وفي صباحات يوم الأحد أشرب بعض زجاجات البيرة. أذهب إلى أحد الأحياء البعيدة كي أضاجع امرأة. في تلك الصباحات المُغَمَّمَة، ذات الرائحة المطرية. أفطر في الكافتريا وأتطلع إلى الشارع قليلا وأنا أدخن، ثم أركب الميترو إلى أحد الأحياء البعيدة. أدخل حانة وأشرب الجعة السوداء. أغني في سِرِّي بعض الأغاني وأسمع تلك الأصوات النائحة التي تخترق صمت الجبل وهي تأتي إليَّ من الداخل. أَسْرَحْ قليلا في غابات أيامي وفي تلك الجبال المكسوة بأشجار اللوز. أراجع بعض الحسابات في دفتر صغير ثم أحصي عدد زجاجات البيرة التي شربت، وأفكر في ترويج سلام من إحدى بناتنا، كآخر الدواء الذي ليس بعده إلا الكَيُّ أو تلك البئر السحيقة، وكيف وأن البئر صارت هي آخر الدواء، بعد أن زوجته ولم يبتعد عن طريق تلك

الزرقاء العينين، الصفراء الشعر، وبعد أن صار دمه كالمجاري أو ماء المذابح أو المراحيض. عُدْنَا أنا وإياه في الصيف، ودون أن نتكلم في الطريق سوى كلمات قليلة. تمت الخطوبة وعَرَّسَ سلام. رأيت الخصلة التي على جبينه تتراقص من الفرح. أخذ زوجته معه وسافر. عاد بعد سنوات مع الزوجة وطفله الذي سماه نعمان. ونعمان يتكلم بعض الكلمات بالألمانية، وأخرى بالعربية وأخرى بالريفية. طفل وديع أسمر من دمنا. قال لي يا جدي سلام له ولد آخر غيري، هل هو أخي ؟ حين رآني متحيرا نط نحو جاكيتة أبيه وأخرج حافظة الأوراق وأظهر لي الصورة. ها هو قال. أخذت الصورة ونظرت الطفل. كان أشقر الشعر وعيناه زرقاوان. في تلك اللحظة، عرفت ما وراء أغوار العينين، ما وراء الشقرة وما وراء الموت في الجبل، في الحفرة أو في تلك البئر السحيقة حيث لا يظهر شيء سوى آخر شيء.

□ □ □

حينما أحسست أن عنقي قد وقع في الكماشة، بين الذراع والساعد، لم أستطع أن أُبْدِي أية مقاومة. أحاطت يدي بالرقبة السمينة ولم تنل منها أي شيء. يده اليسرى تطوقني وتقوم بدور الحماية، واليد اليسرى تشد على احمرار كل شيء. رأيت موتي. أخذ يَشُدُّ على العنق حتى تهاويتُ على الأرض ولم يَخفَّ شَدُّهُ عليّ. لم أسمع أي هُتَاف أو تصفيق. غاب الآخرون وغَاب كل شيء وبقيت وحدي لا أرى ولا أسمع. ظل يلهو بجسدي، يجرجره أينما شاء وهو يتراقص ويضحك، يغني أو يبكي، يرقص رقصة الموت. جسدان في جسد واحد يرقص رقصة الموت. رأيته يموت. لا أعرف كيف ارتخى زنده وهو يتهاوى مُدَرَّجاً في دمه، ورأسه الكبير نازف وعيناه مذعورتان. لم يتحرك ولم يغمض عينيه، وكأنه كان يريد أن يرى نهاية مشهد الممازحة الدموية.

هو سلام.

وقفنا أنا وإياه وجهاً لوجه. نظر إلي وإلى الجثة الهامدة، المفتوحة العينين، والسكين في يده مُلَطَّخَةٌ بالدم. قلت له كم طعنة طَعَنْتَه. ولكنه لم يجب، وانسحب من أمامي. كان آخر ما رأيت منه هو الخصلة التي على جبينه وهي تراقص، وقد ظلت تلك الصورة تلاحقني كما لاحقتني بقية الصور الأخرى.

أحـــــــــلام
عبد الهادي

السبابة تشير

لم يحمل عبد الهادي معه أي شيء من المتاع، فقد كان مخطوفا. في تلك اللحظة العصية عن كل تحديد كان يرتدي بيجامته الحليبية المُنَقَّطَةَ بنُقَطِ سوداء، والحزام يلتف حول وسطه ويتدلى طَرَفَاهُ دون أن يجد الوقتُ لكي يربطهما، ولعله كان لا يرغب في ذلك، إذ غالبا ما كان يربط الحزام حول وسطه ثم يَفُكُّهُ بسرعة، بعد أن يرى نفسه قد أصبح كقسيس، ولعل رفضه لأن يتشابه مع القسيس راجع إلى حالة العزلة التي يريد لها عبد الهادي أن تكون عزلة من نوع آخر.

وجد نفسه وحيدا عاريا في هذا الخلاء الواسع الذي تحول إلى صحراء لا حدود لها، من غير أن يعرف كيف تم اختطافه من . . ره والرمي به في هذا المكان.

ولعله الصباح أو وسط النهار، بدت خلاله السماء رمادية من غير أن يظهر عليها أي سحاب. كان قد ترك الليل وراءه وها هو في الصباح أو وسط النهار في هذا المكان، وقد فقد الدقة في تحديد الزمان، إذ لم تكن في مِعْصَمِهِ ساعة في تلك اللحظة العصية عن كل تحديد، وحتى لو كانت فها هو يقف عاريا وسط الصحراء، والبيجامة الحليبية المنقطة بالنقط السوداء قد اختفت، ولا زمان ولا مكان.

الدار التي كانت هناك، على الساحل الغربي للمتوسط، بعيدة ومعزولة عن الضجيج وزعيق السيارات والإرسال التلفزيوني، فقد كان يصل مُشَوَّشاً، وعبد الهادي لا يتضايق من ذلك، بل بالعكس، لقد وجد فرصته لإخماد صوته إلى الأبد، كما وجد التعليل المناسب لذلك، إذ أخذ يعلل لنفسه أنه ليس هو من يتحامل على التلفزيون ويكرهه، بل أن عدم استعماله للجهاز يعود إلى سوء الإرسال.

كما أن الدار كانت بعيدة عن قصف المدافع وغارات

الطائرات واستهداف الصواريخ للأحياء السكنية والمتاحف والبنيات التاريخية وأشياء الناس الخاصة، فضلا عن أرواحهم وأرواح أبنائهم وأرواح عائلاتهم وجيرانهم وبَقَّالِ الحي وأغنية المذياع وبائع الجريدة والمؤذن والجزار وبائع الخضر والأوراق المكتوبة وكراريس التلاميذ وأقدام الجارات وخطى الأطفال وكل الأشياء الأخرى التي كان يَسْتَهْدِفُهَا القصف. دار عبد الهادي بعيدة عن كل ذلك، ولقد انتشر الظلام في غرفة النوم بعدما أطفأ الأباجورة واستسلم لأصوات رَشْقِ الأمواج لزجاج النوافذ، وهدير البحر. كان لَوْنُ البَحْرِ أسْوَدَ في تلك الليلة، فقد رآه عبد الهادي في عينيه، وكان لون الموج أشد بياضا من المعتاد، إذ كانت الأمواج ترشق النوافذ بقذفات مجنونة. هذا هو البحر يأكل نفسه بين إِرْغَاءٍ وإِزْبَادٍ وتَدَافُعٍ وانْحِسارٍ قال عبد الهادي لنفسه في تلك اللحظة، حركةُ بهلوانية تأتي إليَّ أصواتها وأنا أضحك. أضحك من بلاهة هذا البحر الذي ظن نفسه وقد صار سيد هذا العالم، متناسيا أن هناك بَرّ، كما أضحك من بلاهتي، فقد نسيت أن أخلع نظاراتي وها أنا أضعهما على عيني ولا شيء يمكن أن يُرَى في هذا الظلام.

لم يعايشه في الدار أحد، فقد قتل الكلب المصاب بالسُّعار، كما جاء الوقت الذي أبعدتَ فيه عن الدار المرأة المريضة، والبيضات الفاسدة رماها في مكان ما واستراح من أوهامه حول ما يمكن أن تَفْقَسَهُ تلك البيضات من عجائب وغرائب، والبستاني الثرثار تَغَيَّبَ عن المجيء منذ أيام، ولذلك فهو وحيد وحتى ساعة يده المعطلة رماها إلى البحر من النافذة بعدما أدرك أن شهورا ستمر قبل أن يتمكن من تسليمها إلى الساعتي في إحدى المدن القريبة.

ترك عبد الهادي الرياح تُحَرِّكُ الستائر، ولم يكن باستطاعته أن يفعل شيئا حتى يُوقِفَ أصوات هذا الهدير وهذا

الرشق المجنون لأمواج البحر وهي تلاعب زجاج النوافذ. أشعل الأباجورة وقرأ شيئا من صفحات الكتاب، ثم أطفأ النور وظلت النظارتان على عينيه وهو يرى في الظلام أشياء تشبه المصادرة على حياته وامتلاك مصيره ودفعه نحو حالة التعليق بين السماء والأرض، وقال مالي، أيحدث لي كل هذا وأنا بعيد عن قصف المدافع وغارات الطائرات وقذائف الصواريخ وأرض آلِ نَهْبَان ؟

في تلك الليلة لم يكن في البيت ما يُشرب، فكل القوارير التي جاء بها صارت فارغة. دخن عبد الهادي كثيرا من أوراق طابة بعدما قَصَّها على لوحة خشبية تُستعمل في المطبخ عادة لِقَصِّ البصل والبقدونس. السكين حادة. أعاد غربلة طابة في غربال هو في الأصل علبة سردين فارغة شَكَّها بمسمار حتى تعددت الثقوب وصارت كَغِرْبَال. ذَرَّ طابة في ورق شفاف كان عبد الهادي يستعمله في الطبع على الآلة الكاتبة حتى يحصل على بعض النسخ. دخن ودخن ودخن، وأدار ظهره لكل كتب التاريخ، وللرفوف التي وضع عليها رزما تحتوي على بعض الوثائق : معاهدات، رسائل، صور بعض الجنرالات، خرائط، وقال هذه أشياء ماتت، هذه مقبرة وحتى الأبحاث التي كتبتها صارت تنتمي إلى عالم المقابر.

امتلأ فضاء الغرفة بالدخان وأخذ عبد الهادي يسعل سعالا حادا وهو يقول لكل تلك الأوهام التي كانت تُطِلُّ من ذاكرته تعاليْ، فَتَوَهَّمَ كل الأشياء وقد صارت بالمقلوب، وعرف أن الغربة هي آخر ما تبقى، إذ كيف يوقف أصوات هذا الهدير ؟ بحر هائج ينسى أن هناك بر. بحر أبله يظن نفسه وقد صار سيد كل هذا العالم.

لكنهم في تلك الليلة عرفوا ما يدور في خلده وخطفوه، وظلت سبابته هي التي تشير بالاتهام.

حكاية عبد الهادي لم تتم وتليها :

حكاية الكلب المسعور

كان يرفع رأسه وهو منبطح على الأرض ويظل ينبح بصوته الأبح المشروخ. يحاول أن يفك رباطه الذي يطوق العنق بإحكام وأن يتجاوز المسافة التي يسمح له بها الرباط وهو يذهب فيها ويجيء.

ظل عبد الهادي يخرج إليه ويرمي له الطعام دون أن يستطيع أن يقترب. ينبح نباحه الجريح وهو يُطاول بعنقه الفراغ. عيناه حمراوان وقد احتقن فيهما الدم. لا يأكل ولا يشرب. يمد عنقه جهة البحر، ويحاول أن يُعْلِيَ نباحه على هدير الموج. تلفحه الرياح الشرقية وهو لا يريد أن يدخل مسكنه الخشبي.

أراح عينيه. أراح جسده على الأرض. خفت حدة نباحه وهو يشكو أو يتوجع، ثم اختفى صوتُ نباحه وسكن جسده سَكْنَتَهُ الأخيرة.

كان عبد الهادي قد صبَّ عليه سطلا من الماء وهو في حالة هياجه فأراحه واستراح، وقال عبد الهادي :

– كلب نبَّاح : شاعر مَدَّاح.

حكاية المريضة

هي خالة أمه ولعلها آخر ما تبقى من شجرة العائلة. الآخرون الذين بقوا أخذتهم رحلة الزمن وقادتهم إلى أماكن بعيدة، فلم يأتوا ذات صباح إلا لكي يحملوا لالة زبيدة خالة أم عبد الهادي على متن سيارة وليقولوا له بَقَاؤُهَا هنا أحسن. دارك بعيدة عن الناس، فمرضها يسيء إلى سمعة العائلة، وصراخها الليلي لن يقلق راحة أحد هنا. هاك رقم الهاتف في الدار البيضاء وإذا احتجت إلينا أو ماتت فاطلبنا بالهاتف.

الجسد المهترئ والرائحة الكريهة وعبد الهادي يُغَيِّرُ خرق النظافة كل يوم قبل أن يقرأ أو يكتب صفحات غير مشرقة في

التاريخ، وفي بعض الأحيان يؤجل ذلك إلى ما بعد تناول الغذاء، وصراخ لالة زيدة يَشُقُّ الجدران. تنادي سيدْ الحسن، ولدها الأكبر، وسكينة، ابنتها، وظافر ولبنى وسارّة أحفادها، وتلح في النداء كأنهم سيسمعونها ويأتون إليها بعد لحظة. يذهب إليها عبد الهادي مُتَحَسِّراً فيجدها لا تحتاج إلى شيء سوى حاجتها إلى من يُكَلِّمُهَا ويسمع إليها أحاديث متداخلة من كل أزمنة عمرها. تطلب منه أن يضيء النورَ والغرفةُ مضاءة، فَيَتَشَكَّكُ في أنها صارت عمياء، ثم يَتَأَكَّدُ له أنها تُبْصِرُ حين يرى يدها الراعشة تحاول أن تمسك بشيء قريب منها.

حين تتحدث عن زواجها الثاني تقول وتُلِحُّ على أنها اليوم في العشرين من عمرها، ولقد تزوجت زواجها الأول وهي في التاسعة. كل ذلك معروف ومُعَادٌ سَمِعَهُ عبد الهادي عشرات المرات وهو يصم أذنيه ويُشْرِبُهَا الحليبَ أو يُمَدِّدُهَا على الجنب الآخر أو يغير خرق النظافة، حتى جاء ذلك اليوم الذي أخذوها فيه إلى مكان آخر. قالوا اقتسمنا شهور السنة بيننا، ولقد تمت المدة التي ينبغي أن تقضيها عندك، وحينَمَا تحين مدتك سوف نرجعها إليك، ولم يقل عبد الهادي شيئا، لكنه قَبَّلَهَا على الجبين قبل أن تنطلق السيارة، وقال لنفسه يمكن، إذا وجدتموني هنا.

حكاية البيضات الفاسدة

اشتراها من سوق المدينة. كان ثمة مطر يهطل وعبد الهادي يصعد أدراج السوق ليستبضع بعدما هبط أدراج السوق واشترى السمك والدجاج والبيض وأشياء أخرى ليحفظها في الثلاجة، فحينما احتاج إلى البيضات فقس الأولى في إناء فارغ ليتأكد من سلامتها كما ينصح بذلك عبد الرحيم بركاش في برنامج الطبخ التلفزيوني، لكنه وجدها فاسدة، وفقس الثانية

والثالثة والرابعة فكانت كلها فاسدة. رأى الدم في الأمحاح. وكانت بعض الكتل اللحمية قد أخذ يكسوها الزغب. قززته الرائحة التي انتشرت في المطبخ، ولقد غسل يديه بالصابون أكثر من مرة والرائحة ما تزال.

تأكد عبد الهادي من أن كل البيضات سوف تكون فاسدة إذا ما فقسها، ولربما إذا تركها على حالها فلسوف تفقس من تلقاء نفسها بعض الثعابين أو النسور أو اللقالق أو طيور الرخ فتخرج من الثلاجة وتنتشر في المطبخ والغرف وتعشش في الحمام.

أحرق عبد الهادي البيضات الباقية بالنار وغسل يديه بالماء المخلوط بجافيل، ونام تلك الليلة وهو يحلم بالثعابين والنسور واللقالق وطيور الرخ.

حكاية البستاني الثرثار

منذ أيام لم يجئ للاعتناء بالحديقة. يقول ماء البحر المالح يغمر بِمَدِّه الترابَ ويقتل الأعشاب، ولا بد من استبدال التربة أو من إيقاف مَدِّ البحر، وأقول له غير ممكن، فالنباتات قد تعودت على أن تَتَعَايَشَ مع هذه الملوحة.

يذهب إلى الحديقة ليغيب فترة ثم يدخل غرفة المكتب ليسألني هل بإمكانه أن يقطع شجرة شاخت. يضحك ويقول شجرةٌ ذَاتُ عِمَامَةٍ وركبتين رَخِيَّتَيْن. حين يراني لا أضحك ولا أرفع رأسي عن الأوراق يخرج ليغيب فترة ثم يعودَ ليطلب مني رأيي فيما يمكن أن يفعله الفلسطينيون بأنفسهم بعد حرب الخليج. هل سيرتمون في أحضان أمريكا ؟ هل يَظَلُّونَ متشبثين بالأرض ؟ هل ستستمر الانتفاضة ؟ أقول له إنني لا أتتبع أخبار التلفزيون فيضحك ويقول مؤرخ ولا تتتبع الأخبار ؟

بًّا العَرْبي. أمازحه وأسميه بًّا عَرُّوب. يخرج ويعود

ليخبرني بأنه قد وجد درهما ساقطا في تراب الحديقة، وأطلب منه أن يأخذ ذلك الدرهم وعيناي على الأوراق والخرائط، لكنه يرفض أن يأخذه ويقول عساه ينفعك آ السي عبد الهادي في يوم أسود، ثم يحدثني عن الأيام السوداء والأيام البيضاء وكيف تَغْلِبُ الأيامُ السوداءُ في حياة الإنسان أيامه البيضاء، وأنا أستمع على مضض، وهو يَبْدأُ كلامه من أوله مُنَبِّهاً إيَّايَ إلى أنني لم أسمع كلامه عن السلطان الأكحل، ولالة ميرة، وتشيرشل، وشيوخ مكة، وبوحمارة، إذ كيف أكون مؤرخا دون أن أحفل بحديثه عن هذه الأمور ؟

كنت أعرف أن كلامه عن كل ذلك سيقود إلى الأيام البيضاء والأيام السوداء، وأنه سوف يضحك ضحكته المشهورة، ذَاتَ الأصواتِ المُتَدَرِّجَةِ في الهبوط إلى حين أن تتحول إلى ما يشبه الشهيقَ، ويُذَكِّرَني بمسلسل الراية البيضاء، ليقول أنني أشبه جميل راتب، وأنني في حاجة إلى امرأة، فَضَّة مثلا، أو أية امرأة أخرى تشبهها. وحين يراني لا أضحك، إذ يبدو عليَّ التبرم من حديثه وانشغالي بالأوراق يقول أنه لا يرغب في أجر على عمله في الحديقة، فالبَسْتَنَةُ تستهويه وهو لا يريد أن يرى أرضا محروقة أو نباتات تموت.

تمت الحكايات وتليها حكاية عبد الهادي

ضياع الجهة

ظل عبد الهادي صاحيا يسمع كل تلك الأصوات في صمت الدار بعدما أطفأ الأباجورة، وكا يرتدي البيجامة الحليبية المنقطة بنقط سوداء وقد نسي أن يخلع نظارتيه عن عينيه، فضحك من غباوته وأخذ ينظر من خلالهما إلى الظلام. في تلك اللحظة رأى ضوء الصباح أو وَسَطِ النهار ووجد نفسه يقف في مكان كأنه الصحراء وهو عَارٍ، يقف على الرمل الحارق ولا

كثبان أو نجود أو واحة تستكين إليها النفس ويستظل فيها الجسد.

سار خطوات لم يتمكن من عَدِّهَا نحو الجهات. رجع نحو الجهة الأخرى مُسْتَنْهِضاً بعض قواه للوصول إلى الظَل والماء. وأين هو الظل أو الماء. الذين أخذوه من داره ورموه هنا يعرفون جيدا أنه لن يصل. ولقد أدرك بحدسه أن الإنسان كائنٌ مُحَاوِل.

سيناريو الاختطاف

مشهد ليلي

غرفة النوم / هدير البحر.

عبد الهادي يضع نظارتيه في الظلام وهو يسترخي على الفراش مُرْتَدِياً البيجامة الحليبية المُنَقَّطَة. الأمواج تلطم زجاج النافذة وكأنها تضيء للحظات [illegible] ساعات متقطعة. الأباجورة مطفأة. كتب وجرائد ملقاة على الأرض بجوار السرير. باب الغرفة يفتح من تلقاء نفسه ويظهر عبد الهادي محمولا في الفراغ، ملقى خارج باب الدار الخارجي الذي يظهر وقد انفتح. يسقط عبد الهادي على الأرض. يرتفع هدير البحر. يمسك عبد الهادي ببعض الأعشاب النامية ويُقَرِّبُهَا من عينيه. ينظر إلى الظلام يتسع حواليه ويبقى هناك للحظات.

مشهد نهاري

أرض محروقة. حجارة رمادية تظهر في بعض المناطق وفي مناطق أخرى تظهر بلون الزنجار. أصوات رعد. عيون قطط عوراء تملأ فراغ المشاهدة. مخالب. رجال يرتدون ملابس الكوسمونوط وأحدهم يدخن السيكار. يظهر عبد الهادي قادما من السديم. يرمى فوق الحجارة. يفتح عينيه ويتفحص المكان ثم تتقابل عيناه مع عيون الرجال. نظراتهم قاسية، تتلذذ بحالة عبد الهادي. يقول لهم :

- سجلوا إدانتي.

ينظرون إليه بتَشَفٍّ. يقول :
- لست واحدا منكم.
يقولها وهو يلتفت جهة آل نهبان. يصرخ :
- أنتم الأعداء ومن معكم. أهذه حرب ؟ أنتم تُبِيدُونَ الأطفال والمتاحف وكل الأماكن المضيئة في هذا العالم. قتلة. قتلة وتستعينون بالقتلة.
يقترب منه أحد البدو ويقول :
- نعرف. نعرف عنك كل شيء، ولذلك سنرميك في الصحراء.
في تلك اللحظة تظهر الحَاجَّة فَضَّة كما رآها عبد الهادي في المسلسل التلفزيوني وتقول له :
- احنا ما لنا ومال ؟ عايشين.
يشير أحد الكوسمونوتات إشارة خاصة ويقول :
- كفى. خذوه.

مشهد نهاري

تَتَفَسَّخُ الحجارة الرمادية والأخرى التي بلون الزنجار وتصير الأرض رملية. تتشكل الصحراء. يقف عبد الهادي في وسط الصحراء عاريا. طلقات مدافع. قنابل تضيء. إشعاعات ضوئية. يمحى كل شيء ولا يبقى سوى الضوء الذي يخلب الأبصار. تتوقف إشعاعات الضوء ويظهر عبد الهادي وهو يسير نحو جهة ثم يرجع ليسير نحو جهة أخرى. ينظر إلى الجهتين ويقول :
- الشرق والغرب، كأني أراهما لأول مرة.
ولذلك ظل يمشي على الرمل الحارق والقدمان حافيتان والجسد عار تلفحه شمس الصحراء بنارها الحارقة ولا وصول. الجهة ضاعت. لا شرق ولا غرب. لا نسمة تُهْدِي إلى بحر الشمال المتوسطي حيث الدار والأوراق والكتب والأشياء

الحميمة العزيزة على النفس.

وما معنى أن يظل عبد الهادي واقفا في مكانه من دون أن يفعل أي شيء للخروج منه نحو مكان آخر، أي مكان ؟ لقد تَحَوَّلَ إلى دودة صحراوية غريبة. ربما تقوده الجهة إلى منزل الطفولة، أو إلى أماكن تحصينات الأعداء، ربما، وعليه ألا يبقى في مكانه وألا يكل من السير.

ظهر على بعد بعض البدو وهم يَبُثّونَ المصائد على الرمال، يوجه نشاطهم رجل أشقر ذو نظارة سميكة، وكأنهم عُميان، وكأنه وحده من يبصر، هم يقودونه في الصحراء وهو يرشدهم إلى طريقة زرع الفخاخ. قال عبد الهادي هؤلاء هم آل نَهْبّان. اقتربوا منه وهم يرددون :

- رجل عار. رجل عار.

أخذوه وأَوْقَفُوهُ في إحدى المصائد عُنْوَةً، وتركوه لا يعرف أين هو، وكأنه في صحراء العرب، صحراء الصحراء، والجهة قد ضاعت وصارت كل الجهات جهة واحدة.

مشهد نهاري

صمت. عجاج صحراوي.

من فضاء الصحراء يظهر لعبد الهادي رجل طويل عريض يقترب منه حتى يصير بمحاذاته ويتبادلان النظر طويلا دون أن يقول أحدهما للآخر أي كلام. يَنْشَقُّ رَأْسُ الرجل إلى نصفين وتخرج منه بعض الحمائم. يفرح عبد الهادي. يَتَزَوْبَعُ المكان وتختفي الحمائم في جوف الصحراء. يَتَشَوَّشُ المشهد.

لسع الرمل

في ذلك المكان بقي عبد الهادي واقفا يحترق بنيران الرمل وأشعة الشمس وقد يئس من السير في أي اتجاه من الاتجاهات. أخذ يعرف أن الصحراء لن تقوده إلا إلى الصحراء. الماء في عينيه وجفاف الحلق واللسان يؤذيانه كثيرا وها هو

يتحمل.

كانت حبات الرمل ساكنة تحت قدميه. حارقة ولكنها تتلبد وتتراكم فوق بعضها وكأنها عيون صغيرة ناظرة إليه. ملايين العيون تحترق وعبد الهادي يحترق وكأنه مُعَلَّقٌ بين النار والنار.

فجأة أخذت الرمال تتحرك، تأتي من جهة الشرق، وكأن تيارا هوائيا مصطنعا يدفعها، إذ لم تكن ثمة ريح من قبل، أو ما يؤشر على أن الرياح الصحراوية ستتحرك. قال عبد الهادي هذه واحدة من ألاعيب آل نهبان. لعبة تعلموها من الكوسمونوتات، وتذكر بيتا ريفيا للشاعر عبد الباسط الصوفي يقول فيه : بالرعب والويسكي وظل الموت يَنْتَفِضُ الرجال، وعرف أن آل نهبان قد صاروا كالكوسمونوتات ينتفضون بالرعب والويسكي وظل الموت.

سار عبد الهادي في اتجاه الغرب، غربه، إذ لم يكن يميز شرق هذا العالم من غربه، فَلاَعَبَتْهُ الرمال وأخذت تدفعه وتلسعه من الخلف. وفجأة تغير اتجاه الريح فأخذت الرمال تقذي عينيه وتلسع صدره العاري فارْتَدَّ وأعطاها ظهره سائرا في اتجاه شرقه، فهو لا يعرف شرقا أو غربا لهذا المكان. ظلت الملاعبة بينه وبين الرمال اللاسعة وهو يستدير وهي تستدير، يجري لاهثا وحبات الرمل تلسعه وكأنها أفاع، وهو يصرخ بلسانه الجاف ويقول أينكم يا آل نهبان. أما كفاكم. سأكتب هذا وأشهد عليكم التاريخ.

تزوبعت الرمال وثارت في كل الاتجاهات، وكأنها حركة الدائرة. غطت ركبتيه المنهارتين، ولم يعد لعبد الهادي شرق أو غرب، فقد صارت كل الجهات مدفونة تحت كثبان من الرمل، والدائرة تدور، وأصوات القصف، والعينان المغمضتان بكف اليد اليمنى، والنسيان، والبدء.

كان عبد الهادي قد رأى وهو يغمض عينيه زهورا

صحراوية وغزالات أربع شاردات في الضوء، كما رأى حقولا من الحناء فتذكر كَفَّيْ أمه وقدميها، ورأى أناسا يحملون الكتب، وظهر له التاريخ، كل التاريخ، فعرف أنه البدء، رغم وعثاء السفر.

أحلام عبد الهادي

في تلك الليلة رآه بوجهه الكرش وعينيه الذئبيتين الضاحكتين من خلف النظارة، وعلى ملامحه شهوة الانتصار. كان يستف العظام ويمص منها النخاع وعيناه ضاحكتان. وحينما التفت إلى الوراء كانت هناك مائدة وكأنها لإحدى المقاهي عليها كوب من المثلجات ولا أحد يجلس على الكراسي المحيطة بالمائدة. كرة ثلجية كبيرة تستوي فوق ثلاث كرات كل واحدة منها بلون، ولقد أدركت بالتجربة السابقة في تناول المثلجات أن كل واحدة لها طعم خاص. لكني لم أقترب رغم العطش، واللسان الذي تحول إلى شوكة تقف في الحلق. ورغم استِحْلاَب الريق ولا ريق، فالشوكة وحدها تحفر اللهاة. كيف أقترب وأنا أرى كأس المثلجات على بعد ؟ كيف ؟ صارت كرات المثلج أربع غزالات شاردات في صحراء من الأحابيل والألاعيب والفخاخ. وكان ثمة رأس ذلك الغول وقد خرج من بيته الأبيض، كما نعرفه في الصورة المشهورة. لم يظهر له جسد، فأنا لم أرَ سوى الرأس والأسنان المُلَطَّخَةِ بالدم، والشفتان تَستَفَّانِ النُّخَاعَ من العظام. ولقد تأخر مجيء سيدنا علي، فما الذي دهاه حتى تأخر ؟ لعله يعقد صلحا أو يوزع الخبز على الفقراء أو يكبح جماح آل معاوية المُثْرِينَ على حساب المستضعفين في الأرض. لكنه تأخر، وها هو الغول يقتطع بشفتيه الكبيرتين أجزاء من كرات المثلج وقد حط برأسه على المائدة واحتوى كوب المثلجات بِحنَكَيْهِ الأعجفين وأخذ يبتلع ما يقتطعه بشفتيه من غير مَصّ أو

لَحْس، ودون أن ينتظر فتـور برودة المثلج، ودم الغـزالات يسيل على شفـتيه ويتـقاطر على ذقنه وأُمْشَاجُ العظام تطقـطق بين أنيابه بعدما امتص النخاع.

كان ذلك الغول يستطيع أن يتجول في الصحراء بسهولة ثم يعـود إلى بيـته الأبيض، كـمـا عـرفناه في الصـورة المشهـورة، مُتَفَتّحَ النفس للكلام أمام الكاميرات وعيناه الذئبـيتان ضاحكتان، وسيـدنا علي لم يأت ليزعـزع عرشـه ويطعنه الطعنة المُتَمَكّنَةَ التي تطويه في الحين.

عرفت في تلك اللحظة أن الشجـاعة لا تولد مع الإنسان وإنما هي شيء يتـعلـمـه من خـوض الأهوال والمخـاطر، وأن الجبنَ عادةٌ، وأنْ لا سَلاَمَ إلا مع الحـرب. ورأيت الخيل والجمـال ورعاةً يمهرون فـي نصب الكمائن والفـخاخ فعـرفت أنهم من آل نهـبان وحين رأوا وجه الإمام لم تحمر وجوههم من الخجل ولم تمرق من الحيـاء، ولم يخفضـوا أعينهم، فقـد أشاروا نحو الكوسـمونوتات وأخـفوا رؤوس النـعامـات التي هي رؤوسـهـم تحت الرمل وقـالوا ليكن ما كان.

ورأيت أمي تُسَرِّحُ شـعـرهـا وتُخَلِّلُهُ بزيت الزيتـون على سطح منزلنا القديم تحت شـمس خريفية وهي تثـرثر مع الجارات. صـارت أمي وجـاراتهـا الثـلاث غـزالات أربع، وحـينمـا هبطت الشمس نحو المغيب وبدأت ظلمة المساء تهبط إلى السطح كانت الغزالات مـشغـولات بثرثرات لا تنتـهي، ألهتـهن عن النزول إلى غـرفهـن المتجـاورة وتحـضير الحـسـاء. كـانت السطوح في ذلك الزمـان مَلْهىً وحديقـةً ومكانا للقاء والثـرثرة، ومطبـخا جـماعـيا ومكانا لتـحـضيـر بعض الأشـياء، ومكانا للنـوم في حرارة ليـالي الصيف. كانت الغزالات موجودات في مكانهن الخاص، الأكثر حميميـة، حينما ظهر ذلك الغول بأنيابه الحادة، وعينـيه الضيقتين الضاحكتين. نفرت الغزالات ونسيت كل واحدة منهن الأخرى،

وتبدد الكلام الذي كان قد بدأ، فقد ظهرت الأنياب الحادة اللامعة وانتهى كل شيء. كنت أقشر برتقالة فسقطت من يدي وأنا أرى شعر أمي يتناثر كما تَنَاثَرَتْ شعور الجارات وأخذتها الريح، وعَرَفْتُ أن ذاك هو الغول.

جاءت نساء الحي وصعدن أدراج الدار حتى وصلن إلى السطح ورأين ما رأيت فأخذن يرددن أغنية حزينة تُقَطِّعُ نياط القلب :

يا الجارات
يا الغزالات
القلب فيه ثقب
والعين ما شافت
فين الرجال
يشوفوا هاد الحال
يقتلوا الغول
بالسيف المسلول
يا الجارات
يا الغزالات
المناحة قامت
والدموع خابت وما جابت
ليلنا نهار
هذا عار
يا الجارات
يا الغزالات.

السبابة تشير

حينما خرج ذلك الغول من عصر الجليد إلى عصر الصحراء، كان يعرف جيدا أنه هَيَّأَ أَتْبَاعَهُ من آل نهبان ليحتالوا

على الأوضاع ويُمَهِّدُوا له الطريق.

كان عبد الهادي قد عثر على كثير من الوثائق التي تؤكد ذلك. وحينما لم يجد أي أحد يُدْلِي له بتلك الوثائق، فقد أغلق عليه داره وأخذ يقرأ ويكتب، محاولا أن يدفع عن نفسه تهمة الرَّهْبَنَةِ التي كان ضميره يوجهها إليه من حين لآخر، ولذلك كان كلما ربط حزام البيجامة الحليبية المنقطة بنقط سوداء إلا وفسخه حتى لا يظهر لنفسه كقسيس.

كان يستحضر كل التفاصيل، ويُرَتِّبُ الوثائق والخرائط والصور بحسب الموضوعات التي تبدو له كلها موضوعا واحداً، فيعود لِدَمْجِ تلك الوثائق والصور في ملف واحد. يخرج من عصر الجليد ليدخل عصر الصحراء، ثم يقول لنفسه كلاهما شيء واحد، فمن جعلهما كذلك يقول لنفسه بحُرقة، من رَمَاني في صحراء هذا الجليد ؟ من أخرجني من داري ورماني خارج الجهة وخارج الزمان والمكان ؟ إنني أتَّهِم، وها هي السبابة تشير بالاتهام.

عمامة

خضراء

سألته فجأة :

- كيف تنام دون كوابيس ؟

قال وهو يُمَسِّدُ لحيته :

- في الجبل، ليست ثمة مشاهد للدم، ويمكنك أن تشم رائحة البراري في الليل كما في النهار.

بدا منتصرا وكأنه قد أفْحَمَنِي، لكني لم أكن أصدق أن يكون الشيخ ذو العمامة رجلا ينام دون أن يعاني من الكوابيس. ألا يحلم ؟ ألا يتوجع ؟ ألا يرى في ليله تلك الأشياء الدموية التي يقضي نهاره في ترتيبها ومعالجتها بيديه وعينيه ؟ أم أنه رجل بدون مشاعر، لا يَرِقُّ ولا يتأثر ولا يحلم ؟

تَمَنُّعُهُ عن الكلام عن نفسه زاد من فضولي، فهو يفعل ولا يقول. يأتي متى شاء ويذهب متى أراد. يتكلم عن الجبل وأنا أعرف أن ليس ثمة جبل، فهو يحيا في البيوت والطرقات والمكاتب الإدارية والمزابل والشواطئ والمقابر وكل الأماكن. وكان حين يمرض أو تقهره عِلَلُ الشيخوخة يغيب لأيام أو شهور فلا يأتي، وأشعر بالحنين الغامض المفعم بالأسرار. أتمنى ألا يأتي مرة أخرى ثم أجد نفسي وكأني أرغب في مجيئه، أباعد ما بيني وبينه وأنساه في غمرة الأحزان والتعب ثم أتذكره فجأة وأنا أستعيد شريط ما حدث، فأجده واقفا أمامي دون أن أعرف هل دخل من الباب من غير أن أشعر به أم أنه قد بُعِثَ من الفراغ. هذا هو الشيخ ذو العمامة، وحينما سألته عن الكوابيس مرة أخرى ضحك وقال لي :

- هل أنت خائف علي ؟ خَفْ على نفسك.

- أنا...

- مالك ؟ هل تخاف مني ؟

- أخاف من...

وانحبست الكلمات فلم أقل شيئا.

□ □ □

كان يوما ككل الأيام التي تشرق فيها الشمس حينما جاء على طريقته الغامضة في المجيء، فوجدني في الصالون أشرب القهوة وأدخن سيجارة. كالعادة كان مجيئه مفاجئا، إذْ كنت في تلك اللحظة أرثي موتاي في صمت وأبكي بدموع من دم وأنا أشعر بالراحة ودموع الدم تنحدر على خدي. لم يكن بكاء أطفال أو نساء. كان بكاء دم مَسَحْتُهُ بخرقة وحينما جَفَّتْ عيناي وَجَفَّتِ الخرقة ونظفتها من الدم لم يبق شيء. الرجال مثلي لا يمكن أن يبكوا دموعا، وإذا ما بكوا، فالدم ينحدر من العينين.

حين ظهر في تلك اللحظة، بدا واقفا أمامي بجلبابه الصوفي وعمامته الخضراء، وأسنانه المنخورة. ظهرت بجواره شجرة سامقة معروشة الأغصان وفوق تلك الأغصان مُزَقٌ ثوبية معقودة وأقفالٌ وأبَارِيقُ ولحمٌ مُقَدَّدٌ وحِبَالٌ مفتولة وأشياء أخرى، والشجرة تَسْمَقُ حتى السقف، تَسْتَوِي على أرضية الغرفة وهو بجوارها واقف. قال لي ضاحكا :

- هذه شجرتي.

لم أقل شيئا. سكت لحظة وقال :

- ألا تقول لي الحمد لله على السلامة ؟

قلت :

- الحمد لله على سلامتك. هل عدت من رحلة ؟

- أنا دائما أرحل مع هذه الشجرة.

نظرت إلى الشجرة التي ملأت فضاء الغرفة وقلت له :

- ولماذا لم تكن تأتي بها من قبل ؟

قال :

- كنت أتركها هناك.

وأشار إلى مكان بعيد فرأيت الجدار يختفي وتختفي معه الكتب وتظهر على بُعْدِ أرض غَبْرَاءُ وخيل جامحة ونعامات

تَجفَلُ وهي تبحث عن رمال تُخْفِي فيها الرؤوس. تَوَرَّدَ خَدَّاهُ وابتسم. سَوَّى عمامته الخضراء على رأسه، وسألني عن الصحة فقلت له أنا بخير، وسألني عن الولد حازم فقلت له إنه نائم والغزالة هند تحرسه بعينيها الحانيتين، فضحك حتى أصابه السعال وظهرت أسنانه المنخورة، وحين توقف سعاله سألني أهي الغزالة هند أم المعزة محاسن ؟ وقبل أن أقول له كلاهما شيء واحد عاودته نوبة السعال فاختفى واختفت شجرته معه، وعدت لرثاء موتاي وشرب قهوتي وتدخين بعض السجائر.

□ □ □

كنت أتذكر أمي وأتألم للطريقة التي ماتت عليها، وتَغِيمُ عيناي في بحيرة من دم فأستحضر موت أُختَيْنِ لي، الصغرى والكبرى، ولم يبق لي سوى وسطاهن، سعيدة، فقد ماتت أمينة ورشيدة، وسعيدة الآن في بيتها الزوجي وأنا إليها سأذهب بعد حين ربما لحمايتها من الموت أو لأحتمي بها منه وكلاهما شيء واحد.

مات ابني حازم، وماتت امرأتي بنفس الطريقة التي ماتت بها أمي، ربما مع اختلاف بسيط، على يد الشيخ ذي العمامة الخضراء واللحية المخضبة بالحناء، والجلباب القصير الذي ينحدر عن الركبتين بقليل.

نفس الطقوس،
نفس تراب المقبرة،
نفس الصبَّارِ وأصوات المقرئين،
نفس الفؤوس،
ورَشٌّ ماء الرحمة،
والجريد،
والانسحاب الحزين،
نفس الوجوه، ولا أدري كيف كان أولائك الناس يرون

وجهي، أهو نفس الوجه أم أنه كان قد تغير بين موت وموت كما تغيـر في المرآة، لتطبع عليـه السنون تلك الغـضـون الغـائرة على الجبهـة كأخاذيذ على أرض جرداء؟ قـالوا كثير العبوس والحزن. قالوا كثير التحديق في المجهول حتى تغضنت جبينه. قالوا مصاب بداء النكد. وأنا لم أقل شيئا، إذ أنني لم أكن أنظر إلى وجهي في المرآة.

□ □ □

وأنا رَخِيٌّ كغصن نعناع ذابل،
وأنا غائب في أكفان موتاي الملطخة بدماء بكائي،
وأنا مُؤَرَّقٌ وحَالِم،
وأنا أقرأ الكتاب ولا أعي ما أقرأ،
وأنا أسمعهم يقولون هو ذا آكِلُ ولده وأختيه وأمه، وامرأته التي يسميها الغزالة هند، وتارة المعزة محاسن، وسيأكل ولده طارقا وأخته سعيدة، ولربما سيأكل نفسه كما سيأكلنا إن نحن اقتربنا منه فلنبتَعِدْ حتى ننجوَ بأنفسنا وقانا الله من شره ومن شر الآكلين،
وأنا لا أرد على التهمة الموجعة للقلب،
وأنا أسمعهم يقولون يقرأ كتب الأجفار ويعاشر الأرواح ويستحضر الجن ويقتل الإنسان ويسير في جنازته،
وأنا لا أفيق من الكابوس،
وأنا داخل الكابوس،
بَيْنَ كل ذلك وخلاله جاء الشيخ ذو العمامة الخضراء أكثر من مرة وكان في كل مرة يطعمني من زَوَّادَتِهِ أكْلاً حامضا يتغير طعمه في فمي فيصير مُرّاً شديد المرارة. ولقد كان يدفعني نحو الأكل داعيا إياي لنسيان ذلك الطعم المر وعدم التفكير فيه وأنا آكل.
قال هذا من طعامه اليومي، وحينما سألته لماذا يأكل ذلك

الطعام الحامض الطعم في بداية الأكل، والذي يتحول طعمه إلى مَرَارٍ قوي، أخذ يضحك وأخرج من تحت جلبابه صرة فك عقدتها فظهرت بها أشياء مختلطة رأيت منها

حَبٌّ القنب وحَبٌّ الهال والشعير

صور بعض القتلى وقد ظهرت دماؤهم النازفة

بعض الخرزات

قصاصات جرائد لم أقرأ ما كتب عليها

حبَالاً

شَعَراً

بعض الآيات من شيراز

هبات من الريح.

ثم بعد أن أطْلَعَني على محتويات الصرة أخذ يُشَمْشِمُنِي مُقَرِّباً لحْيَتَهُ المُخَضَّبَةِ بالحناء من صُدْغَيّ وعُنُقِي، وأعطاني كل ما في تلك الصرة بعدما نَفَضَ الخِرْقَةَ على أرض الغرفة وترك كل تلك الأشياء على الأرض.

لم أدر ما علي أن أفعل بتلك الأشياء، وحينما رأى حيرتي قال لي اصنع منها طعاما، اطبخها في الماء وانتظر حتى تتخثر وكُلْ. سيكون الطعم حامضا في البداية، وعليك أن تنسى طعم المرار وألا تفكر فيه وأنت تأكل.

كنت أستمع إلى الأصوات المرتلة للقرآن والأصوات النادبة للميت وهي تتداخل وتُشَوِّشُ على اتحادها همهماتُ ووشوشاتُ وضحكاتُ بعض الجيران الذين جاؤوا للعزاء وحضور المأتم وهم يتضاحكون بكل قلة حياء، وإذا ما التقتْ نظراتي الكسيرة، اللائمة، مع نظراتهم يَنْبَرِي لي من بينهم من يقول اضحك يا أستاذ، اضحك فالدنيا كلها ضحك، هي تضحك علينا ونحن نضحك عليها، نضحك على بعضنا حتى نقضي الوقت. ألم تقرأ هذا في الكتب ؟ ثم إن الميت يحتاج إلى

أن يسمع أصوات فرح. كفاك من الحزن واضحك معنا، أو إذا شئت اضحك علينا قبل أن نضحك عليك. ها. ها. ها. ألا تضحك ؟

حينما أكل عيني أمي لم أقل لأحد، صارت عمياء تمدُّ إليّ يديها لآخذها إلى المطبخ أو الحمام. بعد أيام وعيناها ما تزالان تنزفان دماً، جاء وخنقها وهو يبتسم ابتسامة بلهاء ويُسَوّي عمامته على رأسه. قال موتها خير لها من أن تبقى عمياء. ثم أنها لا بد ستموت. هل يمكن لإنسان أن يعيش دون أن يموت ؟ كان عليك أن تعرف أنها لا بد ستموت في يوم من الأيام، فلماذا لا تعتبر الأمر عاديا وتعيش حياتك العادية في انتظار أن تأتي ساعتك أنت أيضا ؟ اضحك. كُلْ واشرب. انظر إلى الدنيا حواليك. هذا كل ما في الأمر.

جاء إلى أختي الصغرى رشيدة وأخرج قلبها والتهمه وهو يبتسم، وأنا أرى وأبكي وهو يُغْدِقُ عَلَيَّ الدعوات الصالحات ويوصيني بالصبر والسلوان.

ثم بعد عام ونصف كانت صحة أختي أمينة قد تدهورت بسبب موت أمي والأخت وافتقادها للرغبة في الأكل والنوم، وكأنه قد سمع ما دار بيننا من حديث عن ضرورة عرضها على طبيب، وكانت هي ترفض ذلك وتقول أن مرضها لا يمكن أن يعالجه طبيب، فلو عادت إليها أمها وأختها لشفيت مما فيها من مرض. وكان زوجها السي عبد الواحد يقول هذا غير معقول، لا يمكن. الميت لا يعود. انظري إلى أولادك وزوجك فنحن في حاجة إليك، وهذا أخوك تقطع قلبه من الحزن فلا تزيديه عما هو فيه.

وكأنه قد سمع كل ذلك الحديث فجاء وأخرجها من بين أولادها وزوجها ولَقَطَ سُرَّتَهَا بملقاط أخرجه من تحت ثيابه، وحينما انفتحت السرة وسال الدم انحنى عليه في نفس المكان

وأخذ يرشف ويمص ويمضغ حتى أكل جزء من البطن وقال أخضعها لعملية جراحية فماتت. ماتت والسلام. عليكم بالصبر والسلوان. الدفن. إكرام الميت دفنه. عليكم بالكفن وحفر القبر ودعوة المقرئين والصلاة على الجنازة قبل الدفن. جنازة امرأة. السلام عليكم. السلام عليكم.

رأيت ابتسامته وتهلل وجهه بالفرح والطمأنينة. سألته عن الفراعنة الذين كانوا يكرمون موتاهم بالتحنيط، فضحك ضحكةً صاخبة وقال ما لنا وما للفراعنة ؟ هل جننت ؟ الفراعنة كانوا يُحَنِّطُونَ موتاهم من الملوك، أما العبيد فلا أثر لهم، وأنت وأهلك عبيد وحفدة العبيد. هل تريد شيئا آخر ؟ ألاَ قُلْ لي، هل كنت تريد أن تتزوج أختك ؟ قل أيها العبد، ابن العبد، هل تريد أن يفعل بك وبأهلك من العبيد ما لا يليق إلا بالملوك ؟ هذا غير معقول. وأنا الشيخ لا أرضى بهذا. لا تعد إلى مثل هذا الكلام. اقنع بما أنت فيه وارْضَ حتى تكون رَضِيّاً مَرْضِيّاً. الرضى من علامات الإيمان. إياك أن تكون كافرا. هل أنت كافر ؟

ثم رأيت عينيه تتوهجان ورأيت فيهما اقترابا من سرتي، وكأنه يُخَطِّطُ لإجراء عملية جراحية كالتي أجراها لأختي أمينة، لكنه ما اقترب، ولو كان قد اقترب لما كنت قد حكيتُ لكم هذه الحكاية، ولما بكيتُ دموع الدم هاته التي ترونها الآن تنحدر على الخدين.

□ □ □

كنت جالسا في الصالون أقرأ الجريدة حينما ظهر أمامي وظهرت إلى جانبه شجرته المعروشة الأغصان. قال لي :

– ماذا تقرأ في تلك الجريدة ؟

قلت :

– الأخبار.

– أية أخبار ؟

- كل أخبار العالم.

ضحك ضحكة اهتزت لها عروش الشجرة وتساقطت عن أغصانها بعض الأقفال والحبال المعقودة، وكأنها قد انتفضت لضحكته، أو أنها قد ضحكت هي الأخرى. أراني سِنَّهُ الذهبية حتى لم أعد أرى شيئا آخر منه سواها ولا أسمع سوى الضحكات

في تلك اللحظة كنت أفكر في الولد حازم وأتمنى أن تكون الغزالة هند قد انتبهت إلى مجيء الشيخ وحَبَسَتْهُ في غرفة النوم أو منعته من المجيء إلى الصالون حتى لا يرى الشيخ ويراه. كان منظر الشجرة الجاثمة على أرضية الغرفة وقد تبعثرت من حولها تلك الأشياء التي كانت قَدْ نَفَضَتْهَا عنها، ومنظر الشيخ وعمامته الخضراء ولحيته المخضبة بالحناء، وأسنانه المنخورة، وسِنُّهُ الذهبية اللامعة، كل ذلك كان سَيُرْهِبُ الولد حازم، ولذلك تمنيت لو أن المعزة محاسن قد منعته من المجيء، لكنه جاء، دخل علينا الغرفة ووقف مذهولا، يتنقل بنظره بين الشجرة والشجرة دون أن يراني، وكأني لست موجودا.

أخذه الشيخ وحضنه وأجلسه في حِجْرِهِ ثم نظر إليه نظرة كاشفة وابتسم وأخذ يلثم خديه بحنان، ثم لثم ثغره والولد مستسلم وخائف وقد جَفَلَتْ نظراته، والشيخ يَهُمُّ به تحت ناظري ويعتصر شفتيه بالشفتين ويرشف الرضاب والولد كأنه ميت، يسترخي مستسلما وعيناه تحملقان وترجيان وأنا لا أستطيع أن أقول للشيخ اترك الولد، فقد كنت في حيص بيص التي أوقعني فيها الشيخ، كما كنت أرى في عينيه رغبة في الاقتراب ليفعل بي نفس الشيء. لم يترك الولد حتى رأيت الشجرة تضحك وتنفض عنها ما تبقى من أشياء عالقة بالأغصان، ثم اختفت الشجرة واختفى الشيخ وبقي حازم مُسْجىً على الأرض وقد ظهرت على عنقه زرقة الاختناق، فلم تصدق الغزالة هند، ولم يصدق أحد.

□ □ □

فجأة رأيت رَتيلاء تُعَشِّشُ في إحدى زوايا السقف، ثم رأيت عدداً من الزواحف الصغيرة، مَيَّزْتُ منها أم أربعين، فقد كانت تدب بأرجلها فوق الفُرُشِ والكتب ومائدة الطعام. ورأيت بعض الوطاويط وقد أُعْشَى عيونها الضوء وهي تحاول أن تَتَعَلَّق بالسقف والجدران، ثم جاءت الأرانب، والفئران، وانتشرت خيوط العناكب بسرعة فائقة فتحولت الغرفة إلى مكان مهجور، أو إلى إحدى الزرائب. أهذا هو البيت الذي أعددته للزواج من غزالتي، تلك المعزة الهادئة، التي تَعَافُ أكل اللحم وتتقزز من منظري وأنا آكل طبيخ لحم أو سفود كباب ؟ كانت تلك أولى المفاجآت حينما عرفت أنها نباتية، وسميتها الغزالة هند، أو المعزة محاسن.

كان البيت نظيفاً مُرَتَّباً ومُضَاءً تطفح فيه الأغراس الخضراء، أغلب أثاثه جديد، لكني رأيت تلك الرتيلاء تعشش في زوايا السقف، ثم رأيت الحشرات والحيوانات الأخرى، والشيخ واقف أمامي فعلمت أنها جاءت معه. بَاسَ جبيني مهنئا بالزواج السعيد وقال كلاما عن القفص الذهبي ومن تكون معي فيه، وقال إذا أصابها البرد أو ألم الأضراس أو أصابها المَغَصُ أو رأيتها تميلُ كما يميل غُصْنَ النعناع الذابل أو لم تستجب لك فادعني آتيك من تحت شق الباب أو مع النسيم أو من وراء حجاب وإذا كنت في حِلٍّ من أمرك ولم تذكرني فأنا آتيك بنفسي.

بعدما رأتِ الغزالةُ هند من أمر حازم ما رأته، ظلت تبكي لليال ولا تكلمني، ومرت الشهور وهي تبكي ولا تكلمني، حتى جاء الشيخ ذات ليلة ووجدني أقرأ في الصالون والغزالة هند تحضن ولدها طارق، آخر ما تبقى، وقَدَّمَ لي قلوب طير وأكباد ثعالب وقطعا من لحم حيوان لم أتبينه، وكان قد خبأ كل ذلك في صرة من خرق بالية أخذ يفتحها على مهل، ورائحة النَّتَانَة

تَفُوح، وهو يقول لي كُلْ، هذا شيخك يطعمك المر حتى تقوى على مر هذه الحياة، فأكلتُ وأطعمني بيديه، وحينما سألته عن الحيوان الذي أخذ منه قطعة اللحم تلك، قال كُلْ، هذه أكباد ثعالب، فَكُلْهَا ولربما تعرف شيئا عن الثعالب، أو تصير ثعلبا أنت الآخر.

جاءت الغزالة هند معصوبة الرأس، وفاجأها وجوده معي في الصالون، فاقترب منها وجَسَّ بسبابته مكان ضرسها المخلوع الذي ما يزال ملتهبا، ثم أخرج لسانها وأمسك به حتى اقتلعه من منبته وقال للسان قُلْ، قُلْ ما لم تَقُلْهُ أيها اللحم النتن. قل. كنتَ ساكتا وها أنت لا تقول. قُلْ ما كان يخبئه رأس هذه الطائشة الحمقاء.

ظل يمسك اللسان بيده والغزالة هند تنزف وفمها يمتلئ بالدم. التفت نحوي وقال لي أَظْهِرْ لسانك أنت أيها القوال، فضغطت على أسناني حتى أُخْفِيَ اللسان وسط اللَّهَاة، وهو يقول لي أخرج ثعبانك الأسود حتى أراه، أيها القوال. نظر إلى لسان الغزالة هند في يده وقال هذا مصير الصامتين. هذا مصير القوالين، فلم أعرف ما أقول.

□ □ □

أمي.

ابني حازم.

أختي أمينة وأختي رشيدة.

الغزالة هند.

لم يبق سوى أنا وأختي سعيدة وابني طارق. جاء إلي ذات صباح واستَلَّ عضوا من أعضائي بالملقاط الذي أخرجه من تحت ثيابه وأخذ يتقطر الدم، وطارق عيناه مفتوحتان، ينظر إلى الحاجبين الأشيبين واللحية المخضبة بالحناء ولا يصدق أن يكون الشيخ قد فعل هذا.

الطائـــــــــــــــــر
والجزر

هذه صفحةُ ماء مُنْبَسط على مَدَاهُ النهائي. صفحةُ حجارة مَلْسَاء أو مُسَنَّنَة. صفحةُ خدٍّ أسيل. صفحة كأس أو سماء أو كتاب.

الحروف المتشابكة تلتقي وتفترق، تضحك، تُمَارِسُ اللَّهْوَ والعناق والشهوة، تَميل، تَنْهَار وتسقط، تَسْمَقُ وتَرْفَع رؤوسها الحادة المسنونة نحو فراغ بلون سماوي أو أبيض، كُمَيْتٍ يَعْلُوهُ حَبَب، وَرْدِيّ عليه احمرار خجل.

تتوزع الحروف.

تَتَهَشَّمُ وتَنْتَشِرُ مُسْتَقِيمَةَ أو مائلة، من اليمين إلى اليسار مَحْكُومَةً بالجهة وبالارتعاشة والتَّشَنُّج وتَفْجِيرِ الأخبار والطُّرَفِ والمَحْكِيَات، ويمكن أن نضع لها بعض الهوامش يمينا أو يسارا، فوق أو تحت، بين السطر والسطر، إذ منَ الجائز أن تَتَضَمَّنَ تلك الهوامش أنواعا من القبول أو المعارضة، أو إضافة الكلام إلى الكلام، وإضافة الكلام إلى الكلام الذي أُضيفَ إلى الكلام حيث تتلألأ أضواء هذا المهرجان من الأفكار وتتوالد الفكرة من الفكرة وتَنْسَكِبُ الكلمات كأنها الأرواح، والصفحة تستوعب كل ذلك فوق أرضها البيضاء أو الخمرية أو المُوَرَّدَة، وأنا وأنت، يا من لا أريد أن أسميك باسمك، تحضر وتغيب، نتبادل الهمس والضحكات والهدايا الملغومة، تصير لي قَارِعاً وأصير لك قارئا وكلانَا يَمْلأُ العالم بالصخب والثرثرات حول طريقتنا في ابتكار الجنون وابتكار الحياة. ولقد فَضَّلْنَا أنا وإياك أن نَنْظُرَ إلى العالم من ثُقْبِ البـــاب، وأن نَقْعُدَ في الكراسي الخَلْفِيَّة، وأن نَتَغَيَّبَ عن حفلات التعازي والأعراس، وألاَّ نستمع إلى الخطب، وألا نحتفل إلا في أيام خاصة بنا تصنعها الصدفة، وأن نتداوى بأدوية سِرِّيَّة نَصْنَعُهَا لبعضنا حين يَسْتَفْحِلُ المرض. فَضَّلْنَا أنا وإياك أن نسكب أرواحنا في ذات اللحظة فوق فَوْهَة بُرْكَان، وأن نقف على نفس الصفحة، وإن كانت حالةُ الجَارَيْنِ أَنهما متقاطعان لا يتحاوران،

لا يتبادلان التحلية ويفكر كل واحد منهما في أن يَدُسَّ السُّمَّ للآخر، خلسَةً، في ذلك الفطور الصباحي المشترك في حديقة الفندق، وقد كان الفندق هو الآخر موصوفاً من موصوفات الوصف في مُتَخَيَّلِ الصفحة وهي تنسج تفاصيل جريمة أنا أجعل محورها من القاتل، وأنت تجعل القاتل معروفاً وتبني عناصر الإثارة حول كيفية تنفيذه للقتل، ولذلك لم تحدث أية جريمة في الفندق، ما عدا ما يحدث عادة في مخيلة القراء من تفاصيل مثيرة ومُشَوِّقَة كنا أنا وإياك قد خلقناها من الخيال، فعدنا نتبادل التهنئة على حسن الثقة في كون أي واحد منا لم يقتل الآخر، وكانت تلك طريقتنا في السخرية من تَنَاقُضَاتِ هذا العالم.

أنتَ تَقْتُلُنِي وأنا لم أَقْتُلْك.

أنا لم أقتلك وأنت قَتَلْتَنِي.

هل تضحك الآن.

أنت تضحك وأنا أتحدث عن الاحتمال.

نَسْكُنُ المُدُن،

نُعَايِشُ الناس وتصير لنا ذاكرات،

نتعلم فَنَّ الحكي،

وَصَّافِينَ نصير،

والكلماتُ والحذلقةُ ومزبلةُ اللغة،

وأنا وأنت،

هل يمكن أن نلتقي مع كل هذا الحشد، حَشْد من الصور والأخاييل، ومن الكائنات الدقيقة التي تَسْتَعْصِي على الوصف.

للاستطرادات أوقاتها، حيث تنسى الصفحة أو تتذكر، تتظاهر بأنها تسير في نفس السطر، مُنْتَظِمَةً في الخَطِّيَّة، ولكنها تتراجع قليلا أو كثيرا نحو زمن ما، حيث يَشِيعُ نوع من الغموض الذي يطرح الأسئلة البليدة، إذ يكفي أن نَلْتَذَّ بفضاء ذلك العالم الغامض، دون أن نَنْسُبَ إليه بعض التفسيرات القاتلة.

وهذه الحاشية لا بد أن تكون حاشيتها، امتداداتها في خلق العالم من الشمس والضحك والجنون، في الدهشة والاحتجاج والهذيانات ورؤى الأصباح الباكرة، مع أنها تمتد أيضا في الذَّيْلِ والتَّكْمِلَة، في لحظات تفجير عالم الأحلام، وفي المَجْرِي الخَطِّيّ، وتَوَاشُحِ ما يمكن أن نعتبره لحظةَ وِئَامٍ بين الحياة والموت، ولذلك خدعتني يا من لا أريد أن أسميك، حين صَوَّرْتَ لي أن ما على الصفحة ليس سوى استنساخ، وأن القراءة لا تُفْسِحُ مجالا للتأويل.

أنا الآن أهْجُوك.

أُهَدِّدُ بالقتل.

أُهَدِّدُ بالمَحْو، بقتل كلام تلك الصفحة سُمّاً في فطور باحة الفندق في صباح قادم. لا يمكن أن أقتلك، وأنت كاتب معروف يرتدي بذلة حمراء مُلْفِتَةً للنظر في مثل هذه المناسبات، ويتأبط رزمة من كتبه المطبوعة، يفطر بالشاي الأسود وكعكة صغيرة ويقول عن نفسه أنه يفضل الكتابة على ضوء الشموع، والكتابة بالنسبة له عمليةٌ سَهْلَةٌ ما دام خلالها يَسْتَظْهِرُ على الورق كل التفاصيل التي يكون قد حفظها وكَرَّرَهَا لنفسه ولم يَبْقَ عليه سوى أن يكتب هذا المحفوظ على الورق، ثم يقدم كتابا مطبوعا لأحد الفضوليين ويدعوه لمتابعة السطور وهو يستظهر، دون أن يخطئ في كلمة أو فاصلة أو نقطة. والدَّوَاءُ السري ؟ ورُوحَانَا المسكوبتان فوق فوهة بركان ؟ والتعازي والأعراس ؟ والقاتل والطريقة التي بها سوف يقتل ؟ والقارئ الذي أنت تَصيرُهُ لي والقارئ الذي أنا أصيره لك ؟ والنظر إلى العالم من ثقب الباب ؟

لقد خدعت،

ولعلي بعد هذه الخديعة سوف أقرأ صفحة الماء أو صفحة الحجارة أو صفحة ذلك الخَدِّ الأسِيل، صفحةَ السماءِ أو البحرِ أو

الجبل، سأقرأ كل ذلك في صَفْحَةٍ بيضاءَ مَسْكُونَةٍ بالأعاصير، يصير لها رفيف الأجنحة، وتصير الصفحة عُشّاً بعيداً فوق شجرة أسطورية تحرسها عيون لا مرئية، ولا بد من الهجرات الدائمة التي لا وقت لها كي يَتَجَدَّدَ هذا العالم. ولعل ذلك الطائر حينما سكَنَ وسَمِعَ رَفِيفَ جناحيه من الذاكرة قد تَلَوَّنَ بلون الماء الذي طالت هجرته فوقه، وأخذ يقترب من شجرته الأسطورية كي يرى أنثاه.

نأتي بدموع العشق ونجعلها تنحدر على ذلك الخَدِّ الأسيل، ثم تتصاعد الحرارة ويظهر الألَق، والأنفاسُ الحَرَّى تتردد، والنظر ساهِم. لست أنا من أوْقَدَ تلك اللواعج، ليس أنت، وإلا فلسوف نحتاج إلى أن يحكي كل واحد منا الحكاية، وسيجلب ذلك عددا لا يحصى من المشاكل، إذ يكفي الآن أن نأتي بالدموع الحارة ونضعها على المآقي، ونجعل النظر كسيرا، وسَيَحْتَفِلُ الوصفُ بمَوْقَعَةِ العاشقة في فضاء ملائم، إذ لا بد من وصف الغرفة، والأثاث والستائر، والمشهد الذي يطل عليه الشباك، والمنديل المبلل بالدموع. سوف أعطيك كل هذه الأشياء كي تضعها على الصفحة، فهي لا تصلح لي، وإذا ما أخذتها فلسوف نَسْتَحْضِرُ الخنجرَ ولونَ الدم، ثم نأتي بالضحية من الطفولة أو من الأحلام أو من الليالي. لا بد من الضحية، إذ أن حضور الخنجر لا يكتمل إلا بالضحية، وسَيَسْتَهِيمُ التقرير القضائي في وصف المقدمات، وسرد تَفَاصِيلَ أوَّلِيَّة تبدأ من لحظة إغراق العينين في العينين، والتهامس، وضياع الكلمات، وتَخَيُّلِ الجسد في كل حالاته، عاريا ومَكْسُوّاً بالرياض. أتينا بكل ذلك لكنني تركته لك، فأنا أُهَدِّدُ بالمحو، وإلا فلسوف أضع قرص السم في كأس القهوة بالحليب، وإن أخطأت، فسأشربها، وسَتَرْتَعُ كل هذه الأشياء في ذواتٍ قارِئَةٍ لا بد لها من أن تنسى، وعليها ألا تتذكر، فالنسيان يمحو كل شيء، فلتنس، ولا تكتب.

تَبَاعَدَ ذلك الطائر، توارى خلف البحر أو الغابة، استوحش وعاشر النسور والذئاب في مكان توهمه ثم وجده، ولن يخرج منه إلا إذا عرف أنه كان وَهْماً وصار حقيقة. ستَسْتَهْوِيه فكرة الوهم ولن يعود إلينا إلا إذا فَقَدَ جناحيه أو مُخَيِّلَتَهُ التي أخذته إلى عالم الجُزُر. ضاجع أنثاه وعاد إلى الغربة. في الغربة ضاجع نفسه ورفض كل شيء، ما عدا هذه الطقوس البدائية، والضحك والبكاء، واللهو والعناق والشهوة، ولا بد من الكُمَيْتِ التي يعلوها الحبب، إذ أنه حين يَسْتَحِمُّ فيها يرى الأشياء وهي تخترق فضاء الخرائب والموت، ثم يحكي نكتة عن الموت، ويظل ذلك الطائر يضحك، ربما للموت أو للسخرية من الموت.

عندما حط فوق شجرة، اهتزت وتمايلت قليلا واختصرت [illegible] دها إلى ورقة في غصن. صارت الورقة خَيْضُوراً أو صدأ و[illegible]ت لونها من هذه الأشياء. وعلينا أن نتذكر تلك الريشات الخضراء، الخيضورية، التي بلون الصدأ، وبها كتب أجدادنا عن عالم الحمقى والمأفونين، وقد أخذت من جناح ذلك الطائر.

ألم يعجبك هذا؟

قل [illegible]

لقد تعاقدنا على أن نموت في لحظة واحدة، أنا وأنت، وأن يشيد كل واحد منا حياته بالطريقة التي يختارها. لك أن تمحو كل هذه الكلمات، أو تُدَمِّرَهَا، وأن تصبح صانع قنابل ومتفجرات أو تاجر أسلحة، فنحن أنا وإياك لم نتجاور في الصفحة إلا بالصدفة، ولم يكن باستطاعتنا أن نتحاور في شيء سوى قدرة كل واحد منا على أن يمحو صفحة الآخر، ولقد أعطيتُك دموعَ العشق فرفضتها، ولا أدري كيف نلتقي في الهمس والضحكات، ولعلنا لا نلتقي في شيء سوى الهدايا الملغومة.

هدايا ملغومة.

صمت وتذكر.

لحظات وداع.

ريشات خضراء من القوادم، رؤوسها تقطر بالصمغ.

أحلامٌ وأُغَان قديمة.

وأنا وأنت وهذا الحائط الموشوم بآثار أطفال ضَجَّ بصراخهم حيُّنا الشعبي، يوم سرقوا ذلك الطفل من أهله بإغراء التفاحة البلدية المُغَشَّاة بطبقة سكرية حمراء والقضيبُ يَبْرُزُ منها للإمساك. أمسك القضيب وهَرَسَ طبقة الحلوى ثم أكل التفاحة، وكانوا قد سرقوه من أهله ثم عادوا به مَخْتُوناً. ألست أنت هو ذلك الطفل ؟ ربما كنت أنا ؟ ولعل مُرُورنا بذلك الحائط، ونحن نَجُولُ في دروب الذاكرة، سوف يعيد إلينا تفاصيل ذلك الاختطاف الذي بدأ على شكل رحلة ممتعة ثم انتهى بالدم. خُذْ هذه التفاصيل وانثرها على الصفحة، وإذا لم تعجبك فرُدَّهَا إليّ.

الطائر يحلم بأنثاه المستحيلة. يعود من الجزر وقد أضاع بعض قوادمه في الهجرة ونبتت له قوادم أخرى. أليس ذلك الطائر هو أنت ؟ وهل نحن جميعا وَهْمٌ من أوهام هذه الصفحة ؟ لك أن تختار، أما أنا فأقبل بما تختار.

صدر للمؤلف

قصص قصيرة

أوصال الشجر المقطوعة

دار النشر المغربية، الدار البيضاء 1975

النداء بالأسماء

دار الآفاق الجديدة، بيروت 1981

منزل اليمام

1995 Print - Diffussion سلا

روايـــات

أبراج المدينة

اتحاد كتاب المغرب بتعاون مع اتحاد الأدباء في العراق، دار آفاق عربية، 1978

رحيل البحر

المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1983

المباءة

إفريقيا الشرق، البيضاء 1988

فوق القبور / تحت القمر

عيون، البيضاء 1989

أيها الرائي

دار الأمان، الرباط 1990

مغارات

مطبعة الساحل، الرباط 1994

أيام الرماد

اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1994

ردمك ISBN 9981 45 027 8

20 درهما